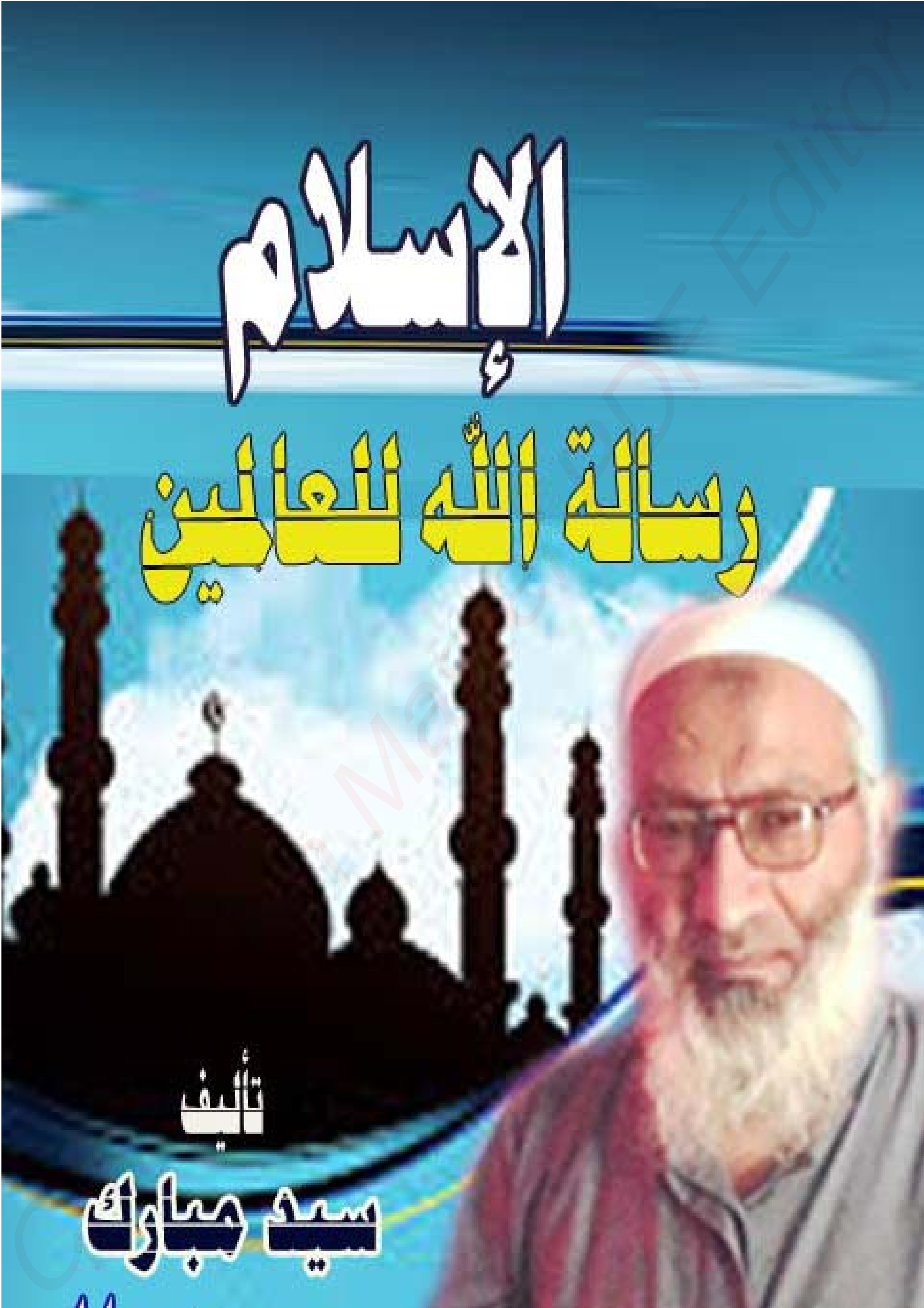


الإسلام
رسالة الله للعالمين
تأليف
سيد مبارك

فهرس الدراسة

-الركيزة الأولى: إقامة الشريعة الإسلامية بحذافيرها، وتطبيقها كمنهج حياة للأمَّة:

-الركيزة الثانية: تعظيم المسؤولية الخاصة والعامة وعدم التفريط فيها:

-الركيزة الثالثة: التكافل والتعاون بين أفراده:

-الركيزة الرابعة: حفظ الحقوق والحريات في إطار الشريعة الربانية:

١-حق المرأة وتحررها في بناء المجتمع الإيماني المثالي:

٢-حقوق أهل الكتاب في ديار الإسلام من منظور الشريعة:

المبحث الرابع

الإسلام وتكريمه للعلم والعلماء

المحور الأول بيان أن العلم والإيمان في الإسلام لا يفترقان

المحور الثاني بيان أن العلوم الشرعية هي روح الأمة وعزتها

المحور الثالث بيان أن حياة الأمة في الاهتمام بالعلم والعلماء

المبحث الخامس

الإسلام والسمو الروحي للإنسان

المحور الأول: بيان حقيقة ارتباط النفس البشرية وسموها بخالقها ورازقها في الإسلام

-سمو النفس وارتقاؤها في الإيمان بالإله الحق:

-نبي الإسلام الأسوة الحسنة للسمو والرقي:

-الأمر الأول: التزام المنهج الشرعي في طريق العبد للارتقاء والسمو:

-الأمر الثاني: تطهير القلب والجوارح من الآفات:

المحور الثاني بيان أن رسالة الإسلام وتعاليمه تسمو بالعلاقات بين البشر

-الأمر الأول: وصايا القرآن والسنة للسمو في علاقة المسلم مع أخيه المسلم:

-الأمر الثاني: وصايا القرآن والسنَّة للسمو في علاقة المسلم بغير المسلم:

المحور الثالث بيان أن تعاليم الإسلام تسمو بالإنسان مع نفسه التي بين جنبيه

-الأول: أنه في حاجة إلى طاقة ليجدد حيويتها ونشاطها دومًا:

-الأمر الثاني: أنه في حاجة لمعرفة طبيعتها، وطرق ترويضها؛ لتستقيم على طريق السمو والرقي، ولا تحيد عنه:

خاتمة الدراسة والفهرس

مقدمة تمهيدية للدراسة

إن الحمد لله، نحمده ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهده الله فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ -آل عمران: ١٠٢].

﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾]الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كلام الله، وخير الهَدْي هَدْي محمد - صلى الله عليه وسلم - وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ثم أما بعد:

فالإسلام رسالة الله للعالمين، لماذا؟

لأنه الدين الذي يُناسِبُ فطرةَ الإنسان، ويُحرِّر عقلَه ووجدانه إلى آفاق عالية من السموِّ والرقي والحرية التي تُشعِرُه بآدميته، وحقِّه الذي لا يتعارض مع حقوق الآخرين في المجتمع الذي يعيش فيه، ويكون عامل بناء لا معْوَل هدم، يزرع ويحصد، لا يُدمِّر ويُخرِّب.

•الإسلام رسالة الله للعالمين؛ لأنه دين الفطرة، والدين الذي ارتضاه الله لعباده، ولا يقبل غيره؛ لأنه ناسخ لما قبله من الأديان ومهيمن عليها، اختاره الله دون سائر الأديان كرسالةٍ خاتمة للبشرية، واصطفى به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وختم به النبوة والرسالة، ويدل على ذلك قوله - تعالى :- ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾-]آل عمران: ١٩، وقوله - تعالى :- ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾-]آل عمران: ٨٥.

قال السعدي - رحمه الله - في بيان الآية ما نصه: "أي: مَن يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعملُه مردودٌ غير مقبول؛ لأن دين الإسلام هو المتضمِّن للاستسلام لله إخلاصًا، وانقياداً

لرسله، فما لم يأتِ به العبد لم يأتِ بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وكل دين سواه فباطل"؛ اهـ.[1]

الإسلام دين الناس كافة:

يقول العلامة ابن العثيمين – رحمه الله –: "الإسلام هو الاستسلام لله وحدَه بالطاعة، فعلاً للمأمور، وتركًا للمحظور، في كل زمان ومكان كانت الشريعة فيه قائمة، وهذا هو الإسلام بالمعنى العام، وعلى هذا يكون أصحاب الملل السابقة مسلمين حين كانت شرائعهم قائمةً لم تنسخ، كما قال الله – تعالى – عن نوح – عليه السلام – وهو يخاطبُ قومه :﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ –يونس: ٧٢

وقال عن إبراهيم – عليه السلام :– ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾]آل عمران: ٦٧[.

وقال أيضًا :﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾]البقرة: ١٣١، ١٣٢[.

وقال عن موسى – عليه السلام – في مخاطبته قومه :﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾]يونس: ٨٤[.

وقال عن التوراة :﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾]المائدة: ٤٤[.

وقال عن الحواريين أتباع عيسى – عليه السلام :– ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾]المائدة: ١١١[.

---

[1] – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي)المتوفَّى: ١٣٧٦هـ(، الناشر مؤسسة الرسالة، ١/ ١٣٧.

وأما الإسلام بالمعنى الخاص، فيختص بشريعة محمد – صلى الله عليه وسلم – قال الله – تعالى :- ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾]الأنعام: ١٦٢، ١٦٣[.

وقال في أمته :﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ ﴾]الحج: ٧٨[.

فلا إسلام بعد بعثته إلا باتباعه؛ لأن دينه مهيمنٌ على الأديان كلِّها ظاهرٌ عليها، وشريعته ناسخة للشرائع السابقة كلها، قال الله – تعالى :- ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾]آل عمران: ٨١[.

والذي جاء مصدقًا لما مع الرسل قبله هو محمد – صلى الله عليه وسلم – كما قال – تعالى :- ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾]المائدة: ٤٨[.

وقال – تعالى :- ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾]التوبة: ٣٣[، فمَن بلغته رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – فلم يُؤمِنْ به ويتبعْه، لم يكن مؤمنًا ولا مسلمًا، بل هو كافر من أهل النار"؛ اهـــ.[٢]

وبناءً على ذلك نقول:

إن دين الإسلام هو الدين الخاتم الذي نسخ كلَّ الأديان، وهو الدين الذي جاء به محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو الدين الحق، وما عدا ذلك فليس بدين، وإن اتَّخذه أصحابه دينًا، ومن ابتَغَى الصلاحَ والفلاح في غير دين الإسلام من اليهود والنصارى وأصحاب أي ملة وفكرٍ، فهو الضالُّ عن الحقِّ والحياةِ السوية الكريمة.

---

[٢] – تقريب التدمرية؛ لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين)١/ ٩٥(.

ويدل على ذلك قول النبي – صلى الله عليه وسلم :–))والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجلٌ من هذه الأمة، ولا يهودي ولا نصراني، ثم لم يؤمن بي، إلا كان من أهل النار)).[٣]

يقول الشيخ الألباني – رحمه الله – في تعليقه على الحديث:

"والحديث صريح في أن مَن سمِع بالنبي – صلى الله عليه وسلم – وما أُرسل به، بلغه ذلك على الوجه الذي أنزله الله عليه، ثم لم يُؤمِنْ به – صلى الله عليه وسلم – أن مصيره إلى النار، لا فرق في ذلك بين يهودي، أو نصراني، أو مجوسي، أو لا ديني، واعتقادي أن كثيرًا من الكفار لو أتيح لهم الاطلاع على الأصول والعقائد والعبادات التي جاء بها الإسلام، لسارعوا إلى الدخول فيه أفواجًا، كما وقع ذلك في أول الأمر، فليت أن بعض الدول الإسلامية تُرسِلُ إلى بلاد الغرب مَن يدعو إلى الإسلام، ممَّن هو على علمٍ به على حقيقته، وعلى معرفة بما ألصق به من الخرافات والبدع والافتراءات؛ ليُحسِنَ عرضَه على المَدْعُوِّين إليه، وذلك يستدعي أن يكونَ على علم بالكتاب والسنة الصحيحة، ومعرفة ببعض اللغات الأجنبية الرائجة، وهذا شيء عزيز يكاد يكون مفقودًا، فالقضية تتطلب استعدادات هامة"؛ اهـــ.

قلتُ:

وهذا حق وربِّ الكعبة، وهو مرادنا من هذه الدراسة؛ بيان حقيقة ديننا، وإعجاز قرآننا، وعظمة شريعتنا التي فيها فلاح البشرية دينًا ودنيا، ودعوة أهل الكتاب وغيرهم من الباحثين عن الدين الحق والإله الحق من بني آدم وذريته من كل جنس ولون، وفي كل الأمصار والأقطار، ممن ظلُّوا على الفطرة السوية التي لم تلوِّثها شوائب المدنية الزائفة وأطماعها الزائلة، فهؤلاء هم أمل البشرية اليوم في حياة آمنة مستقرة تقوم على العدل والحرية والكرامة، وعبادة إله واحد أحد.

والإسلام رسالتُه لهؤلاء العباد، أصحاب القلوب النيِّرة والفطرة السوية، ممَّن يلتمسون سكينةَ النفس وصفاءها بوحي السماء، بعيدًا عن التحريف الذي جرى لكتبهم المقدَّسة، والتحدث باسم الله زورًا وبهتانًا لفئة ترى الدين حكرًا عليها، وهجرًا لشطحات ومزالق أصحاب الفكر الحر والمذاهب الهدامة وشوائب المعتقد التي أفسَدت عَلاقة الإنسان بربه، وجعلت البعض يتَّخذ الهوى إلهًا، والدنيا دارًا، ويرى الواحد منهم الدينَ عقبةً وأغلالاً لحريته في الكفر والإلحاد؛ لأنه يُعيقه عن تحقيق مأربه وهدفه في إضلال الخلق، ولا يعني هذا أننا نريد نشر الفتن والأحقاد، أو نفرض على غيرنا من خلق الله ديننا بالإكراه، قطعًا لا.

---

[٣] – السلسلة الصحيحة ١/ ٢٤١.

والدليل على ذلك قوله – تعالى :– ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال الحافظ ابن كثير في شرح الآية ما مختصره:

"أي: لا تُكرِهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيِّن واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكرَه أحدٌ على الدخول فيه، بل مَن هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته، دخل فيه على بيِّنة، ومَن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مُكرهًا مقسورًا، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عامًّا"؛ اهـ.[٤]

وبناءً على هذا التفسير تعلم سماحة ديننا الذي يرى للمخالفين المعتنقين لغير ملتنا حقهم في الإيمان بدين آخر غير الإسلام، على أمل أن يرى الواحد منهم الحق جليًّا واضحًا، فيهديه الله – تعالى – وينقذه من عذاب أليم.

ويدل على ذلك قوله – تعالى :– ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

وما علينا نحن كمسلمين إلا النصيحة والتبليغ بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، كما قال الله – تعالى :– ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها ما نصه:

"يقول – تعالى – آمرًا رسوله محمدًا – صلى الله عليه وسلم – أن يدعو الخلق إلى الله ﴿ بِالْحِكْمَةِ ﴾، قال ابن جرير: وهو ما أنزله عليه من الكتاب والسنة، ﴿ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾؛ أي: بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس، ذكرهم بها؛ ليحذروا بأس الله – تعالى.

---

[٤] – تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير (١/ ٦٨٢)، دار طيبة للنشر والتوزيع.

وقوله :﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾؛ أي: مَن احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، كما قال :﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾]العنكبوت: ٤٦[، فأمره – تعالى – بلين الجانب، كما أمر موسى وهارون – عليهما السلام – حين بعثهما إلى فرعون، فقال :﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾]طه: ٤٤["؛ اهـ.[٥]

الله – سبحانه وتعالى – هو الإله الحق:

نقول لمن يريد الحق من أهل الكتاب وغيرهم: ها هو القرآن الكريم كتاب المسلمين وكلام رب العالمين، فيه الحق كل الحق، وفيه يخبركم رب العالمين وحيًا على لسان النبي الآمين – صلى الله عليه وسلم :- ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾]آل عمران: ٦٤[.

لهذا كله؛ يتبيَّن للعقلاء وأصحاب الفطرة السوية أن الإسلام رسالةُ الله للعالمين؛ لأنه يدعو البشرية للخروج من ذلِّ العبودية للمخلوق والطاغوت أيًّا كان، لعبادة وتوحيد الله الواحد القهار، وهذا حق لا مرية فيه.

وما من نبي أو رسولٍ بُعث ليقول للناس: اعبدوني من دون الله، هذا محال عند العقلاء وأولي الألباب، بل كانت دعوتهم لعبادة وتوحيد الإله الحق خالقِ الأرض والسماء، وفالق الحب والنوي، الذي يحيي ويميت، يُعِز ويُذِل مَن يشاء، لا رادَّ لقضائه، ولا شريك في حكمه، ولا إله غيره.

ومن أجل ذلك؛ أوحى للنبي الخاتم – صلى الله عليه وسلم – أن يقول لعباده :﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾]الكهف: ١١٠[.

وأوحى لموسى أن يقول :﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾]الصف: ٥[.

---

[٥] – تفسير القرآن العظيم لابن كثير)١/ ٦١٣(، دار طيبة للنشر والتوزيع.

وأوحى لعيسى ابن مريم – عليه السلام – أن يخبرهم :﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾]الصف: ٦[.

والحاصل أن جميع أنبياء الله ورسله لم يقلْ أحد منهم ألبتة: اعبدوني من دون الله تعالى، وكيف يأمُرُهم بترك عبادة الله الخالق – سبحانه وتعالى – لعبادته وتمجيدِه وهو بشرٌ مثلهم لا يملك لهم ولا لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، ولا حياة ولا موتًا ولا نشوراً؟!

ولا عجب أن البشرية في جاهليَّتها اتَّهموا أنبياءَ الله ورسله جميعًا – عليهم السلام – بالسحر والكذب، وربما الجنون! قال – تعالى – عن قوم نوح – عليه السلام :– ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾]القمر: ٩[.

واتُّهم موسى بالسحر – عليه السلام – عندما دعاهم إلى الله وأراهم معجزاته، كما قال – تعالى :– ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ *وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ *قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾]الأعراف: ١٠٧ – ١٠٩[.

والنبي الخاتم – صلى الله عليه وسلم – عندما دعاهم لعبادة الله السميع البصير – سبحانه وتعالى – وترك ما يعبدون من آلهة وأصنام صمَّاء، اتَّهموه كما اتَّهم شرارُ الخلق إخوانَه من الأنبياء، إلا مَن هداهم الله – تعالى.

فقالوا ما ذكره الله – تعالى :– ﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ *أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾]ص: ٤، ٥[.

والقرآن ذكر حدوثَ ذلك مع أنبياء الله ورسله جميعًا – عليهم السلام – فالبشر هم البشر في كل زمان ومكان، لا يُؤمنون إلا بعد التكذيب والتشكيك والرد والصد إلا القليل، قال – تعالى :– ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾]الذاريات: ٥٢[.

الإسلام ليس حكرًا على طائفة معينة:

نُنبِّه كلَّ غيور على الإسلام أنه لا يحتكر الكلامَ باسمِه طائفةٌ معينة من الناس، بل هو رسالة الله للعالمين للإيمان والتفكُّر والتدبُّر، والنهل من منبعَيْه الدائمينِ الصافيين، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، وأقصد بهما القرآن والسنة، ففيهما سعادة البشرية جمعاء، وصلاحها وفلاحها دينًا ودنيا، كما قال - تعالى :- ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾]الإسراء: ٩[.

قال السعدي - رحمه الله" :- يُخبر - تعالى - عن شرف القرآن وجلالته، وأنه ﴿ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾؛ أي: أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمَن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكملَ الناس وأقومَهم وأهداهم في جميع أموره.

﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ من الواجبات والسنن ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أعده الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو"؛ اهـ.[٦]

وفي السنة الصحيحة :))تركتُ فيكم شيئينِ لن تضلُّوا بعدهما؛ كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يَرِدَا عليَّ الحوضَ)).[٧]

ومن ثَمَّ نقول: للجميع الحق في التحدث به والدعوة إلى دين الله - تعالى - بأي وسيلة مستطاعة ويقدر عليها، شريطة أن يكون ذلك في إطار تعاليم الكتاب والسنة، بلا إفراط أو تفريط، ولا فضل لعربي على أعجمي في ذلك إلا بالتقوى والعمل الصالح.

وإننا في حديثنا في بيان أن الإسلام هو الدين الحق الذي سبقت تعاليمُه فكرَ البشرية في احترام حقوق الإنسان وتزكية النفس البشرية، ليس القصد منه التحدي، قطعًا لا.. لماذا؟
لأن الإسلام أسمى من هذا، بل نريد من بيان تعاليم الإسلام إصلاحًا لأغلاط شائعة، وأوضاع جائرة وظالمة، وتبديدٍ للغيوم التي أصابت العقل البشري بتجاهله وحيَ السماء؛ لتكون هذه الرسالة منهجَ حياة للبشرية في رحاب الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وجعله الرسالة الخاتمة، وجعل الرسول - صلى

[٦] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة)١/ ٤٥٤(.
[٧] - انظر حديث رقم/ ٢٩٣٧ في صحيح الجامع.

الله عليه سلم – مبعوثًا للناس كافة، كما قال الحق – تبارك وتعالى :– ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُون ﴾ [سبأ: ٢٨].

نريدُ من أهل الغَيْرة على الدين أن يَنقُلوا للناس كافة أن الإسلام دعوة عالمية، فيه حل لكل مشاكل البشرية، وجلاء أحزانها وهمومها، وأن يذكِّروهم دومًا أن كل معجزات الأنبياء زالت وطواها النسيان، ومات مَن رآها وعاش أحداثها رؤية عين، ولكن معجزة الإسلام قرآنٌ معجز باقٍ إلى يوم القيامة، ومحفوظ بحفظ الله – تعالى – له، وهو موجود يتلوه المؤمنون به في صلواتهم وعباداتهم، ويستطيع كل مَن يريد الانتماء إليه لمسَه وقراءته ودراسته؛ ليرى ما فيه من إعجاز وتشريع يُبدِّد بنورِه ظلمات النفس البشرية ويكشف آفاتها، ويعالج عيوبها وسلبياتها، فهو كلام الله رب العالمين، الربِّ الحق والإله الحق، مَن عمل به وآمَن بما فيه، فهم أمل البشرية للتقدم والرقي إلى آفاق عالية من السمو الروحي والإنساني.

نصيحة من القلب لحماة الدين:

ينبغي لمن يحمل همَّ هذا الدين، ويريد إعادة صياغة فهم الناس للحريات والحقوق الإنسانية من منطلق شريعتنا الغراء، التي تأمر بالعدل والإحسان والمحبة والتسامح بين الناس جميعًا – أن يعلم أن الرعيل الأول من سلفنا الصالح سادوا الدنيا؛ لأنهم كانوا أعدل الناس، وأخلصهم في العمل لله، وأفقههم لدينه، وأعظمهم محبة لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأكثرهم شجاعة وعزة نفسٍ وترابطًا ونصرة لدين الله – تعالى – من أحفادهم.

هذا هو لبُّ القضية؛ أن نخلص النية، وبالخلق الحسن والتواضع والرفق في الدعوة للإسلام والترابط بين الشعوب الإسلامية أفرادًا وجماعات في مواجهة كيد أعداء الدين وسفهائه، إن حدث سوف تحترمنا وتحترم شريعتَنا ودينَنا الأممُ والشعوب، ويدخل الناس في دين الله أفواجًا بإذن الله، وهو ولي ذلك والقادر عليه.

ونذكِّرُ حماةَ الإسلام بعدم الإفراط أو التفريط، وأن هذا الدين متين، فلا يسرع الخُطى فيهوي قبل أن يبدأ، فيضر نفسه ودينه، ولا يبطئ ويتواكل على الله – جل في علاه – للدرجة التي تجعل أعداء الدين يسبقونه بالتبشير والتضليل لخلق الله، ولا يتشدَّد ويتنطع فيُفسِد من حيث يريد الإصلاح، وليتذكر قول النبي – صلى الله عليه وسلم :–))إن هذا الدين متين، فأوغِلوا فيه برفق)).[٨]

[٨] – انظر حديث رقم/ ٢٢٤٦ في صحيح الجامع.

ونُذكِّرُهم مرة ثانية أنه قد ولّى عهد الانتماء النظري للإسلام الذي أفقد المسلمين أسباب التمكين في الأرض إلى حين، ووعدُ الله – جل جلاله – آتٍ لا محالة، وهو القائل :﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور: ٥٥]، وبدأ عصر نقل الرسالة الخاتمة عمليًّا بكافة الإمكانيات والطرق الشرعية والمشروعة.

تعالوا يا حماة الإسلام المخلصين، لنبدأ بخطوات حثيثةٍ واعية، ومدخلُنا ليس بأموال تُنفَق، أو كلمات وخطب تشحن الهمم وتذرف الدموع ثم لا شيء ملموس في عالم الواقع ودنيا الناس، إننا لا ننكر أهمية ذلك في إصلاح النفوس وتهيئتها لحمل أمانة الدين والدعوة بلا كلل أو ملل، ولكن هذا وحدَه لا يكفي، لا بد من التماسِ الوسائل النافعة والشرعية لربط الدين بدنيا الناس في عصرنا هذا، وحسب مفهومهم ومعارفهم وإدراكهم لمفهوم الحياة الكريمة وحقوق الإنسان التي يرون أنه لا يجوز التفريط فيها.

لنبدأ يا حماة الإسلام بوضعِ آليات هذه الوسائل وتنظيمها وإثرائها بتعاليم ديننا وشريعتنا، وهو أمر على جانبٍ عظيم من الأهمية؛ لندخُلَ قلوبَهم، ونحترم عقولهم، ويساعدنا القرآن المعجز وسنة النبي – صلى الله عليه وسلم – التي هي وحي من الله – جل جلاله – وفيهما معًا البلسم الشافي لكل ما تعانيه البشرية من انحطاطٍ في دينهم ودنياهم، لانتشار الكفر والإلحاد، فضلاً عن العنف والحقد والكراهية بسبب العصبية الجاهلية والعنصرية، وما إلى ذلك،التي مزَّقتها كل ممزق؛ ليجلوَ بنور الشريعة والرسالة الخاتمة وسماحتها وثرائها الإنساني والروحي – الجهلَ المطبق بها ممن لا يُدرِك عظمتها، ويظهر معدِن الدين الأصيل كدينٍ سماوي من لدن خبير عليم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هدفنا من هذه الدراسة:

إننا في هذه الدراسة سنُبيِّن بالأدلة الشرعيةِ من القرآن والسنة، وبشرحٍ وبيانِ أقوالِ العلماء الثقات من أهل السنة والجماعة – سبلَ دعوتنا لنصرِ ديننا وحمل لواء هذه الرسالة للعالَمين في بيانٍ وافٍ، بلا تطويل ممل، أو تقصير مخل، في عدة مقالات متتالية، كل مقالة تحوي سطورَها وكلماتُها قضيةً من القضايا التي يحارب العقلاء وأولو الألبابِ من أجلها، ويبحث العامة والخاصة من البشر حلولاً لها لا تتبدَّل ولا تتغيَّر لعيبٍ في مضمونها أو هوًى في تطبيقها، والإسلام وشريعته وعقيدته الثابتة فيه ما يبحث

عنه هؤلاء، قال – تعالى :- ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

قال السعدي – رحمه الله – [بتصرف يسير] ما مختصره:

"شبَّه الله – تعالى – ما يكونُ في القلوبِ من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزَّبَد الذي يعلو الماءَ ويعلو ما يوقد عليه النار من الحِلْيَة التي يراد تخليصها وسَبْكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافيةً مكدِّرة له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناسَ من الماء الصافي والحلية الخالصة، كذلك الشبهات والشهوات لا يزال القلب يكرَهُها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة؛ حتى تذهب وتضمحل، ويبقى القلب خالصًا صافيًا، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال هنا :﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾؛ ليتَّضِحَ الحق من الباطل، والهدى والضلال"؛ اهـ.[٩]

وإننا نُدرِك أن دعوتنا لخلق الله – جل في علاه – ليست بالسهولة بمكان؛ لأن الدعوة المضادة التبشيرية أو المضلِّلة للشعوب من قادتهم وسادتهم وأرباب الفكر ورجال الدين ...إلخ – جعلتهم يعيشون في جهلٍ بالإله الحق المتفرد في وحدانيته، ولا يرون في الإسلام وتعاليمه إلا الإرهاب وحبًّا لسفك الدماء، وسواء كانت هذه النظرة الظالمةُ بسببِ بعضِ السفهاء المحسوبين على الإسلام، أو بسبب الحقد والكراهية للجهل بعظمة وسمو الرسالة الخاتمة، أو غير ذلك.

وأنا على ثقة أنه لم يَفُتِ الأوانُ بعد، ولا يأسَ من نجاح الجهود التي نبذلها وإن تأخَّر حصاد ثمارها، طالما التزمنا منهج السلف وحكمته وسبل الإيمان التي تُوصِّلنا للأهداف النبيلة والسامية التي نسعى إليها، إن نظَّمنا أنفسنا، ودرسنا آليتنا، ووحَّدنا أهدافنا؛ حتى ينتشِرَ الدين وترتفع راية الإسلام عاليةً، كما فعل سلفنا الصالح – إن شاء الله – في ربوع العالمين.

هذا، وقد قسَّمنا هذه الدراسة إلى خمسة مباحث، حاولنا قدر الإمكان أن تكون مختصرة ووجيزة، وكل مبحث قضية قائمة بذاتها يهمُّ البشرية أن تُدرِك كلمة الإسلام فيها، وتحتاج لحماة الإسلام لزيادة موادِّها وإثراء بنودها وفوائدها بالأدلة التاريخية والعلمية الموثقة، وغير ذلك مما لم أذكره؛ لعدم التطويل من

---

[٩] – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة (١/ ٤١٥).

جهة، وترك هذا الفضل لغيري من جهة أخرى، مكتفيًا بالتركيز على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وأقوال علمائنا الثقات من أهل السنة والجماعة.

وهذه المباحث الخمسة، هي كما يلي:

المبحث الأول :الإسلام وتكريم الجنس البشري.

المبحث الثاني :الإسلام وحقوق الإنسان الأساسية.

المبحث الثالث :الإسلام والمجتمع المثالي الإيماني.

المبحث الرابع :الإسلام وتكريمه للعلم والعلماء

المبحث الخامس :الإسلام والسمو الروحي للإنسان .

وبعد، فلا ريب أن البشرية اليوم في حاجة ملحَّة للدين الحق؛ لتستيقظ من غيبوبتِها ويأخذ بيدَيْها إلى المكانة التي من أجلِها استخلف اللهُ الإنسان، ويؤدي الأمانة التي هي سبب لتكريمه وتسخير كلِّ ما في الكون لأجله، وهي أمانة ثقيلة تحتاجُ لهممٍ عالية، لرجال فيهم عزيمة لا تلين، وإيمان ويقين بالله – تعالى – لا يشُوبُه تردُّد أو ضعف أو فتور، فهل من مشمِّر من أهل الإسلام والمؤمنين به كدين حقٍّ ليحمل لواء هذه الدعوة العالمية التي تشرَّفنا بالانتماء إليه والتسمي باسمه، والذي يُقدِّم للبشرية البلسم الشافي في بناء الخلق والمجتمع والأمة؟

المبحث الأول

الإسلام وتكريم الجنس البشري

ذكرنا سلفاً إن دين الإسلام هو الدين الخاتم الذي نسخ كلَّ الأديان، وهو الدين الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو الدين الحق، وما عدا ذلك فليس بدينٍ، وإن اتَّخذه أصحابه دينًا، ومَن ابتَغَى الصلاحَ والفلاح في غير دين الإسلام من اليهود والنصارى وأصحاب أي ملة وفكرٍ، فهو الضالُّ عن الحقِّ والحياة السوية الكريمة.

وبادئ ذي بَدْء نقول:

إن النفس الإنسانية في الإسلام - بصفة عامة - مكرَّمة ومعظمة، وأقصد بالنفس البشرية كل البشربلا استثناء بسبب لون أو جنس أو دين؛ قال - تعالى - في كتابه :﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٠].

قال ابن كثير في تفسيرها ما مختصره:

"يُخبر - تعالى - عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إيَّاهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها؛ كما قال :﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين: ٤]؛ أي: يمشي قائمًا منتصبًا على رِجْليه، ويأكل بيديه - وغيره من الحيوانات يمشي على أربعٍ ويأكل بفمه - وجعل له سمعًا وبصرًا وفؤادًا، يفقه بذلك كلِّه وينتفع به، ويُفرِّق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارَّها في الأمور الدنيوية والدينية.

﴿ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾؛ أي: على الدوابِّ من الأنعام والخيل والبغال، وفي "البحر" أيضًا على السفن الكبار والصغار.

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾؛ أي: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبُه إليهم غيرُهم من أقطار الأقاليم والنواحي.

﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾؛ أي: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات"؛ اهـ.[10]

وأضاف ابن القيم – رحمه الله – عن تكريمِ الله – تعالى – للإنسان:

"فسبحان مَن ألبسه – أي الإنسانَ – خِلَعَ الكرامةِ كلها؛ من العقل، والعلم، والبيان، والنطق، والشكل، والصورة الحسنة، والهيئة الشريفة، والقَدِّ المعتدل، واكتساب العلوم بالاستدلال والفكر، واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد، فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هنا، وبين حاله والمَلَك يدخل عليه في جنات عدن، فتبارك الله أحسن الخالقين"؛ اهـ.[11]

ومن ثَمَّ يتبيَّن للعقلاء أصحابِ القلوب المستنيرة أن الإسلام ينتهجُ في تكريمه للجنس البشري بيانَ مواضع العظمة فيه مما أنعم الله – تعالى – عليه من نعم ظاهرة وباطنة دون سائر خلقه، وإنه – أي الإسلام – كرَّم الجنس البشري كله بشريعته العادلة السمحة التي نسخت كل الشرائع، وختم الله بنبي الإسلام – صلى الله عليه وسلم – الرسالة والنبوة.

قال – تعالى :– ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾]الجاثية: 18[، وهي بهذا شريعة عالمية كاملة لا تقتصر على جنس أو قوم، بل هي للناس والأمم كافة، ودليل ذلك قوله – تعالى :– ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾]سبأ: 28[.

وفي السطور التالية سوف يتبيَّن لنا عظمةُ دين الإسلام الذي كرَّم الإنسان تكريمًا يترقى بالجنس البشري لآفاق عالية من السمو والرفعة؛ لأنه وحي من السماء بعيدٌ عن مواثيق البشر التي تَكيل بمكيالين، وفيها من العوارِ ما يعرِفُه القاصي والداني، وثمة فجوةٌ عميقة بين تلك المواثيق وواقع الناس اليوم، فضلاً عن كونها تُخالِفُ كثيرًا من الأعراف والأخلاقيات المتعارف عليها، وهي في الجملة تخالفُ شريعتنا في الكثير من بنودِها وتعهداتها التي لا تراعي دينًا ولا ذمة.

ونقول بكل قوة ويقين، وهو الحق الذي لا مرية فيه، وليس بعد الحق إلا الضلال:

---

[10] - تفسير القرآن العظيم لابن كثير 1/ 95.

[11] - انظر: مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية 1/263

إن شريعة النبي الخاتم – صلى الله عليه وسلم – فيها الكمالُ والجلال كله لمن أراد الجمع بين الدارين، والله المستعان.

تكريم الجنس البشري بحمل الأمانة والخلافة:

إن من أعظم مظاهر التكريم للجنس البشري خَلْقَ الله – تعالى – للإنسان بيديه في شخص سيِّدنا آدم أبي البشر – عليه السلام – ونَفْخَه فيه من روحه؛ فهو من صنعه وتصويره، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، ليكون خليفة له في هذا الكون الفسيح الذي أبدعه لعبادته وتوحيده، ودليل ذلك في القرآن، وهو كتاب الله المسطور :﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ *فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾]ص: ٧١، ٧٢].

قال ابن كثير – رحمه الله – ما مختصره:

"إن الله – سبحانه – أعلَمَ الملائكة قبل خلقِ آدم – عليه السلام – بأنه سيخلُقُ بشرًا من صلصال من حمأ مسنون، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته، فليسجدوا له إكرامًا وإعظامًا واحترامًا وامتثالاً لأمر الله – عز وجل"؛ اهـ.[١٢]

ولا يقلُّ عظمةً وتكريمًا للإنسان اختيار الله له لحملِ الأمانة لهذا الكون الواسع المترامي الأطراف، وهو كتاب الله المنظور، بما فيه من نجوم ونيازك وأجرام وكواكب وسموات، التي هي من صنع الله الإله الحق الواحد الأحد.

ولا يستطيع مخلوق كائنًا مَن كان أن يقول هو خالقُها ومالكها أو شريكٌ لله – جل وعلا – في صنعها وتكوينها، لا يقول بذلك أو يدعو إليه إلا شِرارُ الخلق وأنصار الشيطان، والمسلم الموصول بالقرآن يُدرِك ذلك بفطرته وإيمانه، وغيره يدركه بعقله وعلمه.

قال – تعالى :– ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾]الكهف: ٥١].

يقول السعدي – رحمه الله:

---

١٢ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٢١٦.

"يقول – تعالى –: ما أشهدتُ الشياطين وهؤلاء المضلِّين خلقَ السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم؛ أي: ما أحضرتُهم ذلك، ولا شاورتُهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟ !بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يُجعَل له شركاء من الشياطين، يُوالَون ويُطاعون كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقًا، ولم يعاونوا الله – تعالى؟! ولهذا قال :﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ ؛ أي: معاونين مظاهرين لله على شأن من الشؤون؛ أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطًا من التدبير؛ لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصيَهم ولا يدنيهم"؛ اهـ.[١٣]

وهذا الكون الشائع كله مسخَّر لخدمته وراحته؛ لأنه رضي بحمل الأمانة التي أبت وأشفقت منها السموات والأرض وحمَلها الإنسانُ على الرغم من ضعفه وجوره.

ويبين لنا الله – جل وعلا – ذلك في قوله :﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾]الأحزاب: ٧٢].

قال ابن العثيمين – رحمه الله – ما مختصره:

"عرض اللهُ الأمانة، وهي التكليف والإلزام بما يجب، عرَضها على السموات والأرض والجبال، ولكنها أبت أن تحملها لما فيها من المشقة والخشية."

ثم قال: "وقال – تعالى :– ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾]فصلت: ١١]، فخاطبها بالأمر، وقال: ائتيا طوعًا أو كرهًا، فقالتا: أتينا طائعين، ففهمت السموات والأرض خطاب الله وامتثلتا، وقالتا: أتينا طائعين، وعصاةُ بني آدم يقولون: سمِعْنا وعصينا."

ثم قال – رحمه الله:–

"الأمانة حملها الإنسان، وكيف حملها؟ حملها بأمرين؛ العقل والرسل:

العقل الذي أعطاه الله – عز وجل – وفضَّله به على كثير ممَّن خلق تفضيلاً.

---

[١٣] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن ناصر السعدي ١/٤٨٠

والرسل الذين أرسلهم الله – عز وجل – للإنسان، وبيَّنوا له الحق من الضلال، فلم يبقَ له عذرٌ، ولكن مع ذلك وصف الإنسان بأنه ظلوم جهول"؛ اهـ.[١٤]

وكل الذي ذكرناه آنفًا يدلُّ دلالة قاطعة على تكريم الله – تعالى – للإنسان والجنس البشري عمومًا، فلا يُعقَلُ أن يُعطِيَه أمانة أبَت مخلوقات أقوى منه وأشفَقَت من حملها، ثم يحجر عليه – حاشا لله – في التفكير والحرية والإبداع والتدبر، التي تعينه على تحمُّل هذه الأمانة الثقيلة في نشر التوحيد الحق والعبادة النقية من شوائب الشرك للخالق، ونشر المحبة والسلام بين المخلوقين، ووضع دعائم الإصلاح الخلقي والاجتماعي والسياسي في إطار شريعتنا التي هي للناس كافة في ربوع العالمين.

ولا يغيبُ عنَّا أن نلفِتَ النظر إلى أن تكريمَ الإنسان في الإسلام تكريمٌ عامٌّ وشامل، للمسلمين وغير المسلمين، وهذا واضح بيِّن فيما ذكرناه آنفًا، وفي كثير من آيات القرآن الكريم، وكذلك في سنة الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – وسنرى في كل مباحث هذه الدراسة أن الإسلام كرَّم الإنسان وارتقى به عقلاً وروحًا وجسدًا؛ لأن شريعتَه سمحاء، لا تعرف الانغلاق والجمود، وسوف نكتفي في هذه الدراسة ببيان ثلاثة من وسائل تكريم الإنسان، والله المستعان.

١-تكريم الإنسان صحيًا وبدنيًّا في الإسلام.

٢-تكريم الإنسان خُلقيًّا وخَلقيًا في الإسلام.

٣-تكريم الإنسان حيًّا وميتًا في الإسلام.

١-تكريم الإنسان صحيًا وبدنيًّا في الإسلام:

الدين الذي يهتمُّ بصحة الإنسان وسلامته صحيًّا وبدنيًا، ويُغذِّي عقله وقلبه وروحَه بتعاليمَ غاية في الرقيِّ والسمو، ثم يثيبه على عملِه هذا الذي لا ينتفع به إلا هو – لَدينٌ يستحق أن يكون رسالةَ الله للعالَمين، وتعاليم الإسلام وشريعته هي جوهرُ العَلاقة بين الله الخالق والعبد المخلوق، وتدعوه إلى التوازن بين التزامه الروحي والدنيوي، لا يطغى هذا على ذاك من أجل الاستقرار الذاتي والنفسي، والتدين الحقيقي هو في الالتزام في التطبيق الذي يقوم على السمع والطاعة؛ ولذلك لا بد من القيام بالتكاليف التي شرعها الله من أجل ضمان هذه السلامة الإنسانية المنشودة.

---

[١٤] - انظر :شرح رياض الصالحين لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين ١/ ٢٣٤

وما نذكرُه هنا عن تكريم الإسلام واهتمامه بصحة الإنسان وبدنه الذي هو علم وفن الوقاية من المرض، مرادُنا منه أن نُثبِتَ بالأدلة الشرعية أن الإسلام اهتمَّ بها اهتماماً عظيماً، وفوق ذلك كله بجعلِها عبادةً وقربة يثاب عليها العبد في دينه ودنياه؛ لحرصه الشديد على الصحة بالوقاية قبل المرض، وبالعلاج بعد المرض، ويحذر من العدوى، وغيرها، وما نذكره هنا غيضٌ من فيض.

١- من ذلك الحث على عدم الإسراف في الطعام حفظًا لصحته، قال - تعالى :- ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾]الأعراف: ٣١[.

قال السعدي - رحمه الله :- ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا ﴾ ؛ أي: مما رزقكم الله من الطيبات، ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشَّرَه في المأكولات الذي يضرُّ بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفُّه والتنوُّع في المآكل والمشارب واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام.

﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾، فإن السرف يُبغِضه الله، ويضرُّ بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدَّت به الحال إلى أن يعجز عمَّا يجب عليه من النفقات؛ ففي هذه الآية الكريمة الأمرُ بتناول الأكل والشرب، والنهيُ عن تركهما، وعن الإسراف فيهما"؛ اهـ.[١٥]

•ومن الأحاديث قولُ النبي - صلى الله عليه وسلم :-))ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنٍ، بحسب ابن آدم أكلاتٍ يُقِمْن صلبَه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنَفَسه)).[١٦]

قلت: والإسلام يحثُّ - فيما ذكرناه من أدلة آنفًا - على أن يكون الإنسان حذرًا من الإسراف عمومًا، وأن يكون وسطًا بلا إفراط أو تفريط؛ حتى لا يُهلِك نفسَه، ويُؤذِيَ صحَّته، وقد بيَّن ابن القيم - رحمه الله - هذا المعنى بكلمات حكيمة، قال: "والفرق بين الاقتصاد والتقصير، أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له؛ تقصير ومجاوزة، فالمقتصد قد أخذ بالوسط، وعدل عن الطرفين، قال - تعالى :- ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾]الفرقان: ٦٧[، وقال - تعالى :- ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾]الإسراء: ٢٩[، وقال - تعالى :- ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾]الأعراف: ٣١[.

---

١٥ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن ناصر السعدي١/٢٨٧

١٦ - انظر: حديث رقم: ٥٦٧٤ في صحيح الجامع.

والدين كله بين هذين الطرفين، بل الإسلام قَصْدٌ بين المِلَلِ، والسنَّة قصدٌ بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه، وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان؛ فإمَّا إلى غلوٍّ ومجاوزة، وإما إلى تفريطٍ وتقصير، وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا مَن مشى خلف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وترَك أقوال الناس وآراءهم لِما جاء به، لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم"؛ اهـ.[١٧]

٢- وثبت عن نبي الإسلام – صلى الله عليه وسلم – أنه سنَّ غسل اليدين قبل الطعام، والعاقل اللبيب يدرك قيمة هذه السنة النبوية في الوقاية من الأمراض، وهذا متن الحديث" :كان إذا أراد أن ينام وهو جُنُبٌ توضأ، وإذا أراد أن يأكل، غسَل يديه.[١٨]"

٣-وحث الإسلام على الطهارة عمومًا للوقاية، ودليل ذلك قوله – تعالى :- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾]البقرة: ٢٢٢[.

قال السعدي – رحمه الله – في تفسيرها :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾؛ أي: من ذنوبهم على الدوام، ﴿ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾{؛ أي: المتنزِّهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهُّر الحسي من الأنجاس والأحداث، ففيه مشروعية الطهارة مطلقًا؛ لأن الله يحب المتصفَ بها"؛ اهـ.[١٩]

كما حثَّ وأثاب عليها – كعبادةٍ مأمور بها – المسلمَ لصحَّة عبادته؛ فهي على سبيل المثال شرطٌ لصحة الصلاة، فلا تصح صلاة المسلم ما لم يتطهَّر من الحدثين الأصغر بالوضوء، والأكبر بالغسل.

ومعلوم أن الوضوء والغسل فيه تنظيفٌ للأعضاء الخارجية للإنسان، ويحميه من العرق والأتربة، وما أشبه ذلك، وفي ذلك وقاية من الأمراض قطعًا، ويدل على أهمية ما ذكرناه من الناحية الشرعية قولُه – تعالى :- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾]المائدة: ٦[، وقول النبي – صلى الله عليه

---

[١٧] - انظر: كتاب الروح لابن القيم ص/٢٥٧.

[١٨] - انظر :السلسلة الصحيحة ١ / ٦٧٤، وصحيح الجامع رقم/ ٤٦٥٩ للألباني –رحمه الله.

[١٩] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن ناصر السعدي١/١٠٠

وسلم -:))الطُّهور شطرُ الإيمان))[٢٠]؛ أي: نصفه، وقوله - صلى الله عليه وسلم :-))الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم)).[٢١]

٤-حث الإسلام على الصحة والوقاية من مجامعة النساء في حالة الحيض أو النفاس؛ لأنه أذًى؛ لخطورة ذلك على الرجل والمرأة على السواء صحيًّا وبدنيًّا؛ قال - تعالى :- ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾]البقرة: ٢٢٢].

قال السعدي - رحمه الله":- يُخبر - تعالى - عن سؤالهم عن المحيض، وهل تكون المرأة بحالِها بعد الحيض، كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقًا كما يفعله اليهود؟
فأخبر - تعالى - أن الحيض أذًى، وإذا كان أذى، فمن الحكمة أن يمنع الله - تعالى - عباده عن الأذى وحده؛ ولهذا قال :﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ﴾؛ أي: مكان الحيض، وهو الوطء في الفرج خاصَّة، فهذا هو المحرم إجماعًا، وتخصيص الاعتزال في المحيض، يدل على أن مباشرة الحائض وملامستها في غير الوطء في الفرج جائزةٌ.

لكن قوله :﴿ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ يدلُّ على أن المباشرة فيما قرب من الفرج، وذلك فيما بين السرة والركبة، ينبغي تركُها، كما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد أن يباشر امرأتَه وهي حائض، أمرها أن تتَّزر فيباشرها.

وحدُّ هذا الاعتزال وعدم القربان للحُيَّض ﴿ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾؛ أي: ينقطع دمُهن، فإذا انقطع الدم، زال المنعُ الموجود وقت جريانه، الذي كان لحلِّه شرطان؛ انقطاع الدم، والاغتسال منه، فلما انقطع الدم زال الشرط الأول وبقي الثاني؛ فلهذا قال :﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ ﴾؛ أي: اغتسلن، ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾؛ أي: في القُبل لا في الدُّبر؛ لأنه محل الحرث، وفيه دليل على وجوب الاغتسال للحائض، وأن انقطاع الدم شرط لصحته"؛ اهـ.[٢٢]

---

٢٠ - جزء من حديث أخرجه مسلم برقم/٣٢٨ - باب فضل الوضوء.

٢١ - أخرجه مسلم برقم /١٣٩٧ -باب وجوب غسل الجمعة على كل بالغ من الرجال.

٢٢ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن ناصر السعدي١/١٠٠.

ونُجدِّد قولنا: لسنا بصددِ بيان الفوائد الصحية والطِّبية لما نذكره هنا، فقد جعلنا هذا الفضل لأهله ممَّن يملكُ إثراء هذه الرسالة بالمعلومات والأدلة الموثقة طبيًّا وعلميًّا وتاريخيًّا وغير ذلك، ويملك أدواهَا، ويدرك أغوارها وأسرارها؛ ليزيدها رونقًا وجمالاً، فيقتنع بها مَن لا يفقه الأدلة الشرعية، ويستجيب لنداء الفطرة، لعله ينظر لرسالة الإسلام نظرةَ انفتاح وإحسان وإجلال، والدال على الخير كفاعِله، ونكون جميعًا ممَّن قال فيهم نبينا – صلى الله عليه وسلم :–))لأن يُهدَى بك رجلٌ واحد خير لك من حُمْر النَّعَم)).[٢٣]

لذا نكتفي في هذه الدراسة ببيان الأدلة الشرعية بشرح الثقات من العلماء – وهم أهل الذكر – إن احتاج البيان ذلك، وهذا يسري في كل بنود ومباحث الدراسة، والله الموفِّق لكل خير.

٥–حث على نظافة البدن مما يضرُّه في كثيرٍ من أحاديث النبي الخاتم – صلى الله عليه وسلم – منها: قوله – صلى الله عليه وسلم –:))الفطرةُ خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الآباط)).[٢٤]

وقوله – صلى الله عليه وسلم –:))السواك مطهرةٌ للفم، مَرضاة للرب))[٢٥]، للمحافظة على طهارة الفم والأسنان معًا.

وقوله – صلى الله عليه وسلم –:))مَن كان له شَعر فليُكرِمه))[٢٦]، للمحافظة عليه؛ لأنه زينة للآدمي، ومن إكرامه العنايةُ به بالحلق والتقصير، وتسريحه، وما أشبه ذلك.

٦–وحث على نظافة وطهارة البيئة، وعلى عدم تلويثها بالتبول والتبرز في الأماكن التي يرتادها الناس؛ فقال:))اتقوا الملاعن الثلاث: البَراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل)).[٢٧]

---

[٢٣] - أخرجه البخاري برقم/٢٧٢٤ –باب دعاء النبي – صلى الله عليه وسلم – الناس إلى الإسلام.

[٢٤] - أخرجه البخاري برقم/٥٤٤١ –باب تقليم الأظفار

[٢٥] - انظر: حديث رقم / ٣٦٩٥ في صحيح الجامع.

[٢٦] - انظر: حديث رقم / ٦٤٩٣ في صحيح الجامع.

[٢٧] - انظر: حديث رقم / ١١٢ في صحيح الجامع.

قال ابن العثيمين:

"والعلَّة: أن البول في الطَّريق أذيَّة للمارَّة، وإيذاء المؤمنين محرَّمٌ؛ قال الله – تعالى :- ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾]الأحزاب: ٥٨["؛ اهـ.

٧–اهتم الإسلام بصحة البدن طبيًّا ونفسيًّا بتحريمِ المُسكِرات والمُخدِّرات، ولعب الميسر، وغير ذلك مما يذهَبُ بعقله، ويُدمِّر صحته ونفسيته، ويخل بوظائفه الجسدية ويضرها، فقال – تعالى :- ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾]البقرة: ١٧٣[، وقال – تعالى :- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾]المائدة: ٩٠[، وقال النبي – صلى الله عليه وسلم – محذِّرًا من الوقوع في الحرام أيًّا كان :))إن الحلال بيِّن، وإن الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمَن اتَّقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرْضه، ومَن وقع في الشبهات وقع في الحرام((؛ الحديث.[٢٨]

٨–حث على تعلُّم السباحة وهي رياضة بدنية، وجعل مَن يموت غرقًا لجهله بها شهيدًا، ويدل على ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم :-))كلُّ شيء ليس من ذكر الله لهوٌ ولعبٌ إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة((.[٢٩]

قال ابن العثيمين" :الغريق الذي يغرق إما في أنهارٍ عظيمة، أو يقع في النهر، أو في البحر، أو ما أشبه ذلك، فإنه يكون من الشهداء في الآخرة؛ ولهذا أمر الإنسان أن يتعلم السباحة، فالإنسان مأمورٌ أن يتعلم السباحة حتى إذا حصل مثل هذه الأشياء أمكنه أن يتوقَّى منه"؛ اهـ.[٣٠]

٢٨ - أخرجاه في الصحيحين، مسلم برقم٢٩٩٦ –باب أخذ الحلال وترك الشبهات، والبخاري برقم/٥٠– باب فضل من استبرأ لدينه

٢٩ - انظر: حديث رقم: ٤٥٣٤ في صحيح الجامع.

٣٠ - انظر: شرح رياض الصالحين لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين ١/١٥٥٠ – باب بيان جماعة من الشهداء في ثواب الآخرة.

٩-نهى عن دخول أماكن الوباء للوقاية منه؛ فقال - صلى الله عليه وسلم -:))إن هذا الوباء رجزٌ أهلَك اللهُ به الأمم قبلكم، وقد بقي منه في الأرض شيء يجيء أحيانًا ويذهب أحيانًا، فإذا وقع بأرض فلا تخرجوا منها فرارًا، وإذا سمعتم به في أرض فلا تأتوها)).[٣١]

قال العلامة ابن العثيمين: "والطاعون وباء فتّاك، والعياذ بالله، قال بعض أهل العلم: إنه نوع خاص من الوباء، وإنه عبارة عن جروح وتقرحات في البدن تصيب الإنسان وتجري جريان السيل حتى تقضي عليه، وقيل: إن الطاعون وخز في البطن يصيب الإنسان فيموت، وقيل: إن الطاعون اسم لكل وباء عام، ينتشر بسرعة؛ كالكوليرا وغيرها، وهذا أقرب، فإن هذا إن لم يكن داخلاً في اللفظ، فهو داخل في المعنى كل وباء عام ينتشر بسرعة، فإنه لا يجوز للإنسان أن يقدم على البلد الذي حل فيها هذا الوباء، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا منها؛ لأنكم تخرجون منها فرارًا من قدر الله لو فررتم فإنكم مُدرَكون لا محالة؛ ولهذا قال: لا تخرجوا منها فرارًا منه، أما خروج الإنسان منها لا فرارًا منه، ولكن لأنه أتى إلى هذا البلد لحاجة، ثم انقضت حاجته وأراد أن يرجع إلى بلده، فلا بأس"؛ اهـ.[٣٢]

قلت :وهناك الكثير، ولكن فيما ذكرناه بيان شاف لما نريد قوله وتوصيله لكل من يبحث عن حقيقة هذا الدين القيم المُنقِذ للبشرية، الذي استوعبت شريعتُه حقائقَ المعاش والمعاد، ولندحض به الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام بأنه دين يحتقر الإنسان ولا يكرمه، ونميط اللثام عن أخطاء كبيرة وقع فيها أهله المحسوبون عليه، لجهلهم بنقائه وصفائه، والله المستعان.

٢-تكريم الإنسان خُلقيًّا وخَلقيًا في الإسلام:

كرَّم الإسلام الإنسان خُلقيًّا وخَلقيًا في كثير من الآيات، والأحاديث النبوية الصحيحة، وما نذكره هنا في هذه الدراسة على سبيل المثال لا الحصر، والله الموفِّق.

أولًا: تكريم الإنسان في الإسلام خَلقيًّا:

قلنا سلفًا: إن من أعظم مظاهر التكريم للجنس البشري هو خَلْقُ الله تعالى الإنسان بيديه في شخص سيدنا آدم أبو البشر- عليه السلام - خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، وكان ذلك بأمر الله -

---

٣١ - انظر: حديث رقم: ٢٢٥٣ في صحيح الجامع

٣٢ - انظر: شرح رياض الصالحين لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين ٢١٥٢/١ - باب كراهة الخروج من بلد وقع فيها الوباء فرارا منه.

جل في علاه -، وهو يملكها ولا تملكه، وتتقيد بإرادته كيفما شاء، ولكن ذريته جَعَلَ وجودها وخلقَها، له سببٌ دنيويٌّ، وهو التقاء الرجل بالمرأة، وعن طريق التناسل بينهما تأتي الذرية.

قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال العلامة ابن العثيمين – رحمه الله :- والخطاب للمؤمن والكافر، والبَر والفاجر، ﴿ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ [الحجرات: ١٣] من ذكر هو آدم، وأنثى هي حواء، هذا هو المشهور عند علماء التفسير، وذهب بعضهم إلى أن المقصود بالذَّكَر والأنثى هنا الجنس، يعني أن بني آدم خُلقوا من هذا الجنس من ذكر وأنثى، وفي الآية دليل على أن الإنسان يتكون من أمه وأبيه، أي يُخلق من الأم والأب اهـ.[٣٣] .

وخَلْقُ الإنسان من أعظم مظاهر تكريم الإنسان في الإسلام.

وبيَّن لنا الله تعالى كيفية الخلق، ومراحل تكوين الإنسان، وهو جنين في بطن أمه، فقال – جل وعلا :-﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ *ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ *ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ – ١٤].

وقال النبي –صلى الله عليه وسلم :-((إنَّ خلْقَ أحدكم يُجمَع في بطن أمه أربعين يومًا أو أربعين ليلة، ثم يكون علَقَة مثله، ثم يكون مضغة مثله، ثم يُبعَث إليه الملَك، فيؤذَن بأربع كلمات، فيكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإنَّ أحدكم لَيعملُ بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينها وبينه إلا ذراعٌ، فيسبقُ عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل النار، فيدخل النار، وإن أحدكم ليعملُ بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينها وبينه إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل عمل أهل الجنة، فيدخلها)).[٣٤]

٣٣ - انظر تفسير العلامة محمد العثيمين (٧:٣٨).

٣٤ - أخرجه البخاري برقم٣٠٨٥ ، باب خلق آدم – صلوات الله عليه – وذريته.

•ومن مظاهر تكريم الإنسان في الإسلام خَلقيًا أن الله تعالى خَلَقه في صورة حسنة يتميز بها عن غيره؛ قال تعالى :﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾]آل عمران: ٦].

قال ابن كثير :﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾]آل عمران: ٦]؛ أي: يخلقكم كما يشاء في الأرحام من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾]آل عمران: ٦]؛ أي: هو الذي خَلَق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا تُرَام، والحكمة والأحكام اهــ.[٣٥]

•ومن كرم الله على النفس البشرية أنه أنعم عليها بنعم ظاهرة وباطنة، لا تُحصى ولا تُعَدُّ، كما قال تعالى :﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾]النحل: ١٨]؛ وذلك ليتمكن الإنسان من أداء الأمانة المكلَّف بها على أفضل وجه وأحسنه، ومن هذه النعم التي أُكرِمَ بها الإنسان على سبيل المثال ما يلي:

♦خلق له عينين ليبصر بهما، ولساناًينطق به، وشفتين يضبط بهما النطق والكلام؛ ليفهم قوله، قال تعالى :﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ *وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾]البلد: ٨، ٩].

♦وخلقه في أحسن هيئة وأكملها، بأن جعله يمشي منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه، وغيرُه من المخلوقات يمشي على أربعٍ ويأكل بفمه.

قال تعالى :﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾]النور: ٤٥].

قال ابن كثير – رحمه الله :– يذكر تعالى قدرته التامة، وسلطانه العظيم، في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها، وحركاتها وسكناتها، من ماء واحد؛ ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ﴾ كالحية وما شاكلها، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطير، ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي

---

[٣٥] - تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢:٦)؛ الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع.

عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات؛ ولهذا قال :﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي: بقدرته؛ لأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن؛ ولهذا قال :﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾اهـــ .[٣٦]

وخلق له أذنين ليسمع بهما ويميز بين الأصوات، وعقلاً ليدرك به الأشياء ويفقه، وما إلى ذلك من النعم والحواس.

ومن مظاهر تكريم الإنسان في الإسلام خَلقيًّا أنه اختص فئة من الخلق بالبلاء في السمع، أو البصر، أو شلل يصيبهم في البدن، أو غير ذلك؛ لحكمة لا يعلمها إلا هو –جل في علاه – قال تعالى :﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾]الملك: ١٤[، قال السعدي – رحمه الله – في تفسيرها :هذا إخبار من الله بسَعَة علمه، وشمول لطفه، فقال :﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ﴾]الملك: ١٣[؛ أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، فـــــ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾]الملك: ١٣[؛ أي: بما فيها من النيات والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال التي تُسمَع وتُرى؟!

ثم قال – مستدلاً بدليل عقلي على علمه :- ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾]الملك: ١٤[، فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟ !﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾]الملك: ١٤[الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر والخبايا، وهو الذي ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾]طه: ٧[.

ومن معاني اللطيف :أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويُرقِّيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من العبد على بال؛ حتى إنه يذيقه المكاره؛ ليتوصل بها إلى المحابِّ الجليلة، والمقامات النبيلة اهـــ.[٣٧]

قلت :والبلاء جسديًا في الدنيا امتحان للعبد، ليس تحقيراً من شأنه، بل لرفع درجته برحمته، ومحبته له – عز وجل – وإن صبر واستقام و لم يشْكُ إلا إليه، فقد يشفيه من بلائه في الدنيا بقدرته وكرمه، كما قال تعالى عن نبي الله أيوب – عليه السلام :- ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ *فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ ﴾]الأنبياء: ٨٣، ٨٤[.

---

[٣٦] - تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير (٦:٧٣)، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع.

[٣٧] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي ٨٧٦/١

وقد يدَّخر دعاءه ومناجاتَه له ثوابًا وعطاءً لصبره ورضاه بقضائه فيه، في دار الخلد نعيمًا أبديًّا سرمديًّا.

•قال تعالى :﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

قال ابن كثير :قوله تعالى} :﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾ قبل أن تُبتَلَوا وتُختبروا وتُمتحنوا، كما فُعل بالذين من قبلكم من الأمم؛ ولهذا قال :﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وهي: الأمراض والأسقام والآلام، والمصائب والنوائب اهـ.[٣٨]

•وقال النبي –صلى الله عليه وسلم :–((إن الله – تبارك وتعالى – يبتلي عبده بما أعطاه، فمن رضي بما قسم الله – عز وجل – له، بارك الله له فيه ووسعه، ومن لم يرضَ، لم يبارك له فيه)).[٣٩]

•وفي رواية أخرى قال –صلى الله عليه وسلم :–((أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتَلَى الناس على قدر دينهم، فمن ثَخُن دينه، اشتد بلاؤه، ومن ضعُف دينه، ضعف بلاؤه، وإن الرجل لَيُصيبُه البلاء حتى يمشي في الناس ما عليه خطيئة)).[٤٠]

قال ابن القيم :والله تعالى يبتلي عبده؛ ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه.

وقد ذم اللهُ سبحانه من لم يتضرع إليه، و لم يستكنْ له وقت البلاء، كما قال تعالى :﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

٣٨ - تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير (١:٥٧١)، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع.

٣٩ - انظر السلسلة الصحيحة (٤: ٢١٥) للألباني.

٤٠ - انظر حديث رقم: ٩٩٣ في صحيح الجامع.

والعبد أضعف من أن يتجلَّد على ربه، والرب تعالى لم يُرِدْ من عبده أن يتجلد عليه، بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه اهـ.[٤١]

ثانيًا: تكريم الإنسان في الإسلام خُلقيًّا:

من مظاهر تكريم الإنسان في الإسلام خُلقيًّا: دعوته له للتمسك بحسن الخلق، وهو الجامع لكل خير، وبيَّن ذلك من لا ينطق عن الهوى بكلمات قليلة، فيها جوامع الخير كله، فقال -صلى الله عليه وسلم :-))البِر حُسنُ الخُلُق، وَالإِثمُ مَا حاك فِي نَفسك وكرهت أَن يُطَّلع عَلَيْهِ)).

قال ابن العثيمين :أما حُسْنُ الخلق مع الله، فهو: الرضا بحكمه شرعًا وقَدَرًا، وتلقي ذلك بالانشراح وعدم التضجر، وعدم الأسى والحزن، فإذا قدَّرَ الله على المسلم شيئًا يكرهه، رضي بذلك واستسلم وصبر، وقال بلسانه وقلبه: رضيت بالله ربًّا، وإذا حكم الله عليه بحكم شرعي، رَضِي واستسلم، وانقاد لشريعة الله – عز وجل – بصدر منشرح، ونفس مطمئنة، فهذا حُسْنُ الخلق مع الله – عز وجل.

أما مع الخَلْقِ، فيُحْسِنُ الخُلُق معهم بما قاله بعض العلماء: كف الأذى، وبذل الندى، وطلاقة الوجه.

كفُّ الأذى :بألا يؤذي الناس لا بلسانه ولا بجوارحه.

وبذْلُ النَّدَى :يعني العطاء، فيبذل العطاء من مالٍ وعلم وجاه، وغير ذلك.

وطلاقة الوجه :بأن يلاقي الناس بوجه منطلق، ليس بعبوس، ولا مُصَعِّر خده، وهذا هو حسن الخلق. اهـ.

٤١ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين؛ لابن القيم)ص:٢٦(؛ الباب التاسع: في بيان تفاوت درجات الصبر.

قلتُ :ومن تكريم الله – تبارك وتعالى – للإنسان خُلقيًّا أنه خلق الناس جميعًا على الفطرة السوية، والحنيفية السمْحة لا تشوبها شائبة؛ قال تعالى :﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾]الروم: ٣٠[.

•وقال النبي –صلى الله عليه وسلم :–))كل مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يُهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يُمَجِّسانه، كمثل البهيمة تُنتَجُ البهيمةَ، هل ترى فيها جدعاء)).[٤٢]

يقول السعدي – رحمه الله – ما مختصره:

فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع اللَّه في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فَلِعَارض عَرَض لفطرته أفسدها، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–:))كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه)) اهــ.[٤٣]

•والإسلام رسالة الله للعالمين، ضمت شريعته الكثير من الأوامر والنواهي؛ لإرساء مبدأ الثواب والعقاب – ستزيد من بيانه في المبحث التالي – وهو المبدأ الذي لا تستقيم حياة الشعوب والأمم إلا به، وقد يقال: إن الثواب والعقاب موجود في كل ملة وشريعة، وقانون وضعي، نقول: هذا صحيح، ولكن في الإسلام بسماحته وسموه وعدله ومنهجه الرباني الذي حفظه الله من التبديل والتحريف، فيه سعادة البشرية ورقيُّها، كما سوف يتبين لكل منصف في هذه الدراسة .،

إذًا مبدأ الثواب والعقاب في ديننا الإسلامي، شُرِع لتحسين أخلاق البشر، وإن طُبق على كل إنسان، لاستقام حال البشرية جمعاء.

وأذكر في هذه العجالة من مظاهر تكريم الإنسان خُلُقيًّا ما يلي:

---

٤٢ - أخرجه البخاري برقم:١٢٩٦، باب ما قيل في أولاد المشركين.

٤٣ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي)٦٤٠/١

•حثَّ الإسلام على الرفق واللين، والإحسان للخلق، وترك الغلظة والشدة، وكظم الغيظ الذي يؤدي للكراهية والعداوة؛ فقال تعالى :﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾]آل عمران: ١٣٤[.

وقال النبي –صلى الله عليه وسلم–:))إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنْزَعُ من شيء إلا شَانَه)).[٤٤]

•ونهى الإسلام عن خيانة الأمانة، وحث على الالتزام بأدائها، وأَمَرَ بالوفاء بالوعد، ونهى عن إخلافه بلا عذر، فقال تعالى :﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾]المؤمنون: ٨[.

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم –:))أربعٌ من كُنَّ فيه، كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤْتُمِنَ خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجَر)).[٤٥]

•وحث الإسلام على حفظ اللسان عن الغيبة والنميمة، وقول الزور، والكذب، والفحش في القول، والسخرية من الخير، وما أشبه ذلك مما يتلفظ به الإنسان ويحاسَب عليه، فقال تعالى :﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾]ق: ١٨[.

•قال النبي –صلى الله عليه وسلم– لمعاذ بن جبل – رضي الله عنه –:))ألاَ أخبرك بِملاك ذلك كُلِّه؟))، قلتُ: بلى يا رسول الله، فأَخَذَ بلسان نفسه، وقال:))كُفَّ عليك هذا))، قلت: يا رسول الله، إنَّا لَمُؤاخذون بما نتكلم به؟! قال:))ثَكِلَتْكَ أمك يا معاذ! وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم – أو قال: على مناخِرِهِمْ – إلا حصائدُ ألسنتهم)).[٤٦]

---

٤٤ - أخرجه مسلم برقم٤٦٩٨ ، باب فضل الرفق، من حديث عائشة – رضي الله عنها.

٤٥ - انظر حديث رقم: ٨٨٩ في صحيح الجامع.

٤٦ - صحح الألباني إسناده في الترهيب والترغيب برقم/٢٨٦٦؛ والسلسلة الصحيحة –٣: ١١٤

قال ابن العثيمين :فالمؤمن يجب أن يَحْذَرَ لسانه؛ فإنه آفة عظيمة؛ ولهذا قال الرسول – عليه الصلاة والسلام –:))من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فَلْيَقُل خيرًا أو ليصمت))[٤٧]، وحينئذٍ نعرف أن الصمت مفضَّل على الكلام؛ لأن الكلام قد لا يدري الإنسان أخيرٌ هو أم شرٌّ، ثم إني أقول: الكلمة إذا أطلقْتَها، وخرَجَتْ من فَمِكَ، فهي كالرصاصة تطلقها، لا يمكنك أن تمنعها إذا خرجت من فوهة البندقية، إذا انطلقت تُفْسِد أو تُصلح، كذلك الكلمة، فالعاقل يمنع لسانه، ولا يتكلم إلا بخير، والخير إما في ذات المتكلِّم به، وإما في غيره، يعني قد يكون الكلام ليس خيرًا لا بنفسه، لكنه خير من جهة آثاره، قد يتكلم الإنسان بكلام لغو، ليس أمرًا بالمعروف، ولا نهيًا عن منكر، وليس إثمًا ووزرًا، لكن يتكلم من أجل أن يفتح الباب للحاضرين؛ لأنه أحيانًا تستولي على المجلس الهيبة، ولا أحد يتكلم، فيبقى الناس كلهم في غم، فيتكلم من أجل أن يفتح الباب للناس، وتنشرح صدورهم، ويحصل تبادل الكلام الذي قد يكون نافعًا، نقول: هذا الكلام الذي تكلم، وفتح به باب الكلام، وأزال عن الناس الغم – يعتبر خيرًا اهـــ.[٤٨] .

والحاصل مما ذكرنا أن مِنْ كَرَمِ الله تعالى على الجنس البشري أنه وهبهم حُسْن الخُلُق، وحسن الخِلْقة، وشرع لهم دينًا يخاطب قلوبًا واعية، تتعطش للكرامة الإنسانية في سموها ورقيها؛ لأنه رسالة الله للعالمين.

٣–تكريم الإنسان حيًّا وميتًا في الإسلام:

النفس البشرية في الإسلام حَظِيَتْ في تكريمها وتعظيم شأن صاحبها حيًّا وميتًا بما لا يوجد في أي ملة من الأديان، سواء كانت ديانة سماوية أو دنيوية، وها هي بعضٌ من تعاليم وأحكام هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وجعله الدين الخاتم والمهيمن على سائر الأديان.

أولًا: من مظاهر تكريم الإنسان حيًّا:

١–كرَّم الله النفس البشرية بأن جعل لها الحق في الحياة وحرَّم إهلاكها، وقد ذم الله في قرآنه وَأْدَ البنات قديمًا في الجاهلية قبل البعثة، وهو دفنهنَّ أحياءً خوفًا من العار أو الفقر.

---

[٤٧] - أخرجاه في الصحيحين: البخاري برقم/٥٩٩٤، باب حفظ اللسان، ومسلم برقم:٦٧، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت.

[٤٨] - انظر تفسير ابن العثيمين– ١٨/٨)

قال تعالى :﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ *يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾]النحل: ٥٨، ٥٩[.

قال ابن العثيمين :وأد البنات هو: أن من عادة الجاهلية الحمقاء أن الإنسان إذا وُلد له بنت دفنها – والعياذ بالله – وهي حية ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ *يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾]النحل: ٥٨، ٥٩[؛ يعني: يختفي عن الناس من سوء ما بشر به، ﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾]النحل: ٥٩[؛ أي: يبقيها مع الإهانة وعدم المبالاة بها، ﴿ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ﴾]النحل: ٥٩[؛ أي: يدفنه وهو حي، حتى إن بعضهم – والعياذ بالله – كان يَحفِر حفرة لابنته، فطار شيء من الغبار على لحيته وهو يريد أن يدفنها، فنفضت لِحْيته عن التراب ودفنها والعياذ بالله، إلى هذا الحد؛ يعني قلوب أغلظ من الحجارة، حتى البهائم لا تفعل بأولادها هكذا. اهـ.[٤٩]

ولأن الحياة منحةٌ إلهيةٌ؛ فقد حرم الله في الإسلام قتل النفس البشرية حتى وهي جنين في بطن الأم بدون سبب شرعي يسوِّغ ذلك، فحرم على النساء الإجهاض بعد نفخ الروح؛ فالجنين بعد نفخ الروح فيه، لا يجوز إجهاضه، بلا خلاف بين علمائنا؛ لأنه قتلُ نفس بغير حق، أما قبل ذلك، ففيه خلاف، ولسنا بصدد بيانه في موضعنا هذا.

والأصل في حكم الإجهاض: الحظر والمنع؛ والإسلام اعتبر النفس البشرية لها حرمتها، وجعلها إحدى الضرورات أو الكليات الخمس، قال الله تعالى :﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾]الأنعام: ١٥١[.

•والنبي المبعوث رحمة للعالمين –صلى الله عليه وسلم– ضرب القدوة في حفظ النفس البشرية، وحرمة قتلها بغير حق، فلم يُقِم الحد على الغامدية التي جاءت معترفة بالزنا، فقالت يا رسول الله :إني قد زنيت فطهرني، وإنه ردَّها، فلما كان الغدُ، قالت: يا رسول الله، لِمَ تَرُدُّني؟ لعلك أن تردَّني كما رَدَدْتَ ماعزًا، فوالله إني لحبلى! قال:))إما لا، فاذهبي حتى تلدي((، فلما ولدت، أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال:))اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه((، فلما فطمته أتته بالصبي في يده

---

٤٩ - انظر شرح رياض الصالحين؛ لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين –٢١٥٣/١، باب النهي عن إضاعة المال في غير وجوهه التي أذن الشرع فيها.

كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحُفِرَ لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها فيقبل خالد بن الوليد بحجر، فرمى رأسها، فتنضح الدم على وجه خالد فسبَّها، فسمع نبيُّ الله –صلى الله عليه وسلم– سبَّه إياها، فقال:))مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغُفِر له))، ثم أمر بها فصلى عليها ودُفِنَتْ.[٥٠]

لقد أبى النبي –صلى الله عليه وسلم–إقامة الحد عليها إلى أن وضعت حملها، ثم أرضعته وفطمته، وبعد ذلك أقام الحد عليها، ودفع الصبي إلى رجل من المسلمين، فهذا دليل على حرمة النفس في هذا الدين الذي يسمو بها ويكرمها.

٢–حرَّم على الإنسان وسائل إهلاك النفس وقتلِها؛ حفظًا لها، بغير مبرر شرعي يبيح ذلك، كالإضراب عن الطعام، أو الانتحار، أو ما أشبه ذلك، وسوف نفصِّل هذا فيما يأتي من مباحث في هذه الدراسة، فما نجمله هنا، نبسطه في موضع آخر؛ منعًا للتكرار، والله المستعان.

٣–حرم عليه ما يَشين آدَميَّته، ويضر بصحته، ويهلكه، كالتدخين، وتعاطي المخدرات والمسكرات، واللواط والزنا، وكل ما يخالف الفطرة، ويسبِّب له أمراضًا، تؤثر عليه صحيًّا ونفسيًّا، وقد تؤدي لوفاته.

قال تعالى :﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾]البقرة: ١٩٥[.

قال السعدي :والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أُمِر به العبد، إذا كان تركه موجبًا أو مقاربًا لهلاك البدن أو الروح، وفِعْل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك: ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغرير الإنسان بنفسه في مقاتلة، أو سفر مخوف، أو محل مسبعة أو حيَّات، أو يصعد شجرًا أو بنيانًا خطرًا، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

٥٠ - أخرجه مسلم برقم٣٢٠٨، باب من اعترف على نفسه بالزنا.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة: الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها: ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي في تركها هلاك للروح والدين. اهـ.[٥١]

وقال النبي – صلى الله عليه وسلم :–))لا ضرر ولا ضرار)).[٥٢]

٤–دعا لتزكية النفس بما يحييها ويسمو بها، ونهى عن اتباع الهوى، وطاعة الشيطان، فيضلها وتشقى، والإنسان مخير في عمل الخير أو الشر في دنياه؛ لأنها دار عمل وبلاء، وفي الآخرة يجازيه الله تعالى بعدله وكرمه ما شاء.

قال تعالى :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾]الشمس: ٧ – ١٠[.

قال الشنقيطي – رحمه الله – ما مختصره:

فهذه النفس في تسويتها لتلقي معاني الخير والشر، واستقبال الإلهام الإلهي للفجور والتقوى، أعظم دلالة على القدرة من تلك الجمادات التي لا تبدي ولا تعيد، والتي لا تملك سلبًا ولا إيجابًا.

وهنا مثال بسيط فيما استُحْدِث من آلات حفظ وحساب، كالآلة الحاسبة والعقل الإلكتروني؛ فإنها لا تخطئ كما يقولون، وقد بهرت العقول في صفتها، ولكن بنظرة بسيطة نجدها أمام النفس الإنسانية كقطرة من بحر.

فنقول :إنها أولاً من صنع هذه النفس ذات الإدراك النامي، والاستنتاج الباهر.

ثانيا: هي لا تخطئ؛ لأنها لا تقدر أن تخطئ؛ لأن الخطأ ناشئ عن اجتهاد فكري، وهي لا اجتهاد لها، إنما تشير وَفْق ما رُسم لها؛ كالمادة المسجَّلة في شريط، فإن المسجِّل مع دقة حفظه لها، فإنه لا يقدر أن يزيد ولا ينقص حرفًا واحدًا.

---

[٥١] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي)٩٠/١

[٥٢] - صحح الألباني إسناده في غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام، برقم: ٦٨.

أما الإنسان، فإنه يغيِّر ويبدل، وعندما يبدِّل كلمة مكان كلمة، فلقدرته على إيجاد الكلمة الأخرى، أو لاختياره ترك الكلمة الأولى.

وهكذا هنا، فالله تعالى هنا خلق تلك النفس أولاً، ثم سواها على حالة تقبلُ تلقِّي الإلهام بقسميه: الفجور والتقوى، ثم تسلك أحد الطريقين، فكأن مجيء القسم بها بعدتلك المسميات دلالة على عظم ذاتها وقوة دلالتها على قدرة خالقها، وما سواها مستعدة قابلة لتلقي إلهام الله إياها .اهـ.[٥٣]

ثانيًا: من مظاهر تكريم الإنسان ميتًا :

١-فرض غُسله وتكفينه، والصلاة عليه، والدعاء له بالرحمة، وتشييعه حتى يوارى جسده الثرى.

•ودليل الغُسل حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي -صلى الله عليه وسلم-:))خَرَّ رجل من بعيره فوقع فمات، فقال: اغسلوه بماء وسدر، وكفِّنوه في ثوبيه، ولا تخمروا رأسه؛ فإن الله يبعثه يوم القيامة مُلَبِّيًا)).[٥٤]

•ودليل الصلاة عليه وتشييعه حديث ثوبان قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:))من صلى على جنازة، فله قيراط، ومن شهد دفنها، فله قيراطان))، قال: فسئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن القيراط، فقال:))مثل أُحُدٍ)).[٥٥]

•ودليل الدعاء حديث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه وقال:))استغفروا لأخيكم وسَلُوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل)).

٢-حثَّ على احترام الميت، وعدم احتقاره وأذيته بالقول أو الفعل، مهما كان دينه؛ لحرمة النفس البشرية عمومًا، وكرامتها عند الله تعالى، وهو الذي يحاسبها إن شاء غفر لها وأدخلها جنته، وإن شاء عذبها وأدخلها ناره، وأدلة ذلك ما يلي:

---

٥٣ - تفسير أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن؛ للشنقيطي)٨:٥٤٠(، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

٥٤ - أخرجاه في الصحيحين: البخاري برقم١١٨٠، باب الحنوط للميت، ومسلم: برقم٢٠٩٢، باب ما يفعل بالمُحرِم إذا مات.

٥٥ - أخرجه مسلم برقم١٥٧٥، باب فضل الصلاة على الجنازة واتباعها.

•دليل احترام الميت كنفس بشرية خلقها الله -تعالى-: حديث عبدالرحمن بن أبي ليلى قال: كان ابن حنيف، وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمر عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض؛ أي: من أهل الذِّمَّة؟ فقالا: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مرَّت به جنازة، فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي؟! فقال:))أليست نفسًا؟)).[٥٦]

•وفي رواية عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنهما – قال:
كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- إذ مرت بنا جنازة، فقام لها، فلما ذهبنا لنحمل، إذا هي جنازة يهودي، فقلنا: يا رسول الله، إنما هي جنازة يهودي؟ فقال:))إن الموت فزع، فإذا رأيتم جنازة فقوموا)).[٥٧]

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرح الحديث ما مختصره: قال القرطبي: معناه أن الموت يفزع منه، إشارة إلى استعظامه، ومقصود الحديث ألا يستمر الإنسان على الغفلة بعد رؤية الموت؛ لما يُشْعِرُ ذلك من التساهل بأمر الموت، فمن ثم استوى فيه كون الميت مسلمًا أو غير مسلم.

وأضاف – رحمه الله –: وعن ابن عباس مثله عند البزار قال: وفيه تنبيه على أن تلك الحالة ينبغي لمن رآها أن يقلق من أجلها ويضطرب، ولا يُظْهِر منه عدم الاحتفال والمبالاة اهـ.[٥٨] .

•ودليل عدم احتقاره وأذيته، وسرقة أعضائه، أو نبش قبره، إلا لضرورة شرعية أو ما أشبه هذا:
حديث عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:))كسر عظم الميت ككسره حيًّا)).[٥٩]

قال العلامة ابن العثيمين – رحمه الله –: واعلم أن كسر عظم الميت ككسره حيًّا، كما جاء ذلك عن النبي – عليه الصلاة والسلام – فالميت محترم لا يجوز أن يؤخذ من أعضائه شيء، ولا أن يُكسر من

---

٥٦ - أخرجاه في الصحيحين: البخاري برقم١٢٢٩، باب من قام لجنازة يهودي، ومسلم برقم١٥٩٦، باب القيام للجنازة.

٥٧ - أخرجه البخاري حديث رقم١٢٢٨، باب من قام لجنازة يهودي.

٥٨ -انظر شرح الحديث رقم١٢٢٨ لابن حجر في فتح الباري ٤/٣٦٦

٥٩ - انظر صحيح الأحكام -٢٣٣ ، والإرواء (٧٦٣) للألباني.

أعضائه شيء؛ لأنه أمانة، وسوف يُبعَث بكامله يوم القيَامة، وإذا كان كذلك، فلا يجوز أن تأخذ منه شيئًا.

ولهذا نص فقهاء الحنابلة – رحمهم الله – على أنه لا يجوز أن يؤخذ من الميت شيء من أعضائه، ولو أوصى به؛ وذلك لأن الميت محترم، كما أن الحي محترم، فإذا أخذنا من الميت عضواً، أو كسرنا منه عظماً، كان ذلك جناية عليه، وكان اعتداء عليه، وكنا آثمين بذلك اهـــ.[٦٠] .

٣-كرَّم الإسلام النفس البشرية، فحرم التمثيل بجسد صاحبها ميتًا، ودليل ذلك حديث عبدالله بن يزيد عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه نهى عن النهبة والمُثْلة.

وقال ابن تيمية :فأما التمثيل في القتل، فلا يجوز إلا على وجه القصاص، وقد قال عمران بن حصين – رضي الله عنهما –: ما خطَبَنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– خطبة إلا أمَرَنا بالصدقة، ونهانا عن المُثْلة، حتى الكفار إذا قتلناهم، فإنَّا لا نُمثِّل بهم بعد القتل، ولا نجْدَع آذانهم وأنوفهم، ولا نَبْقُر بطونهم، إلا أن يكونوا فعلوا ذلك بنا، فنفعل بهم مثلما فعلوا، والترك أفضل، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾]النحل: ١٢٦، ١٢٧[، قيل: إنها نزلت لما مثَّل المشركون بحمزةَ وغيره من شهداء أُحُد – رضي الله عنهم – فقال النبي –صلى الله عليه وسلم-:))لئن أظفرني الله بهم، لَأُمَثِّلن بضعْفَيْ ما مثَّلُوا بنا((، فأنزل الله هذه الآية، وإن كانت قد نزلت قبل ذلك بمكة. اهـــ.[٦١]

وننبه القارئ الكريم أن ما أثبتُّه هنا بالأدلة الشرعية عن تكريم الإسلام للجنس البشري، كله صدق ويقين، وما أردنا إلا أن نُميط اللثام، ونكشف النقاب، عن الغفلة عن هذه الشريعة العظيمة، التي أصابت كثيراً من المسلمين، فصاروا يتفاخرون بمواثيق وحقوق لا تراعي دينًا ولا حرمة، ظاهرها الرحمة، وباطنها العذاب، بما تحتويه من عَوَار في التطبيق والمضمون، وإهانة للنفس التي أكرمها خالقها – جل في علاه – برسالة خاتمة، فيها صلاحها وفلاحها، دينًا ودنيا.

---

٦٠ - انظر شرح رياض الصالحين؛ لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين

٦١ - مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية)٢٨:٣١٤(.

المبحث الثاني

الإسلام وحقوق الإنسان الأساسية

تكلَّمنا في المبحث الأول عن تكريم الجنس البشري عمومًا، وفي هذا المبحث نطرح الميثاق الإسلامي الرباني لحقوق الإنسان، بعيدًا عن شطحات الفكر البشري وضلاله، الذي أفسد حياةَ البشرية من حيث يريد الإصلاح؛ لجهله بطبائع البشر ودقائق النفس البشرية التي لا يعلمها إلا خالقها – جل وعلا – القائل في كتابه المعجز :﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾]الملك: ١٤.[

وما نراه يحدث في العالَم الحر من سفك للدماء، واستحلال للأموال والأعراض، وإهلاك الحرث والنسل – يُؤكِّد السقوط المُدَوِّي لكل مواثيق ومبادئ حقوق الإنسان التي ابتدعتْها قريحة الإنسان لحفظ حياته وآدميته، وهذ يدل ويُبيِّن بجلاءٍ أن الشريعة الخاتمة، وتعاليمها السامية، التي تجمع بين الدين والدنيا – هي الحق الصراح الذي يستقيم عليه فلاح ونجاة البشرية اليوم، وليس بعد الحق إلا الضلال.

معنى الحق لغة واصطلاحًا:

الحقُّ في اللغة: خلاف الباطل، وحقَّ الشيءُ يَحِقُّ بالكسر؛ أي: وجب، وأَحْقَقتُ الشيء؛ أي: أوجبته، واستَحقَقْتُهُ؛ أي: استوجبته.[٦٢]

٦٢ - انظر لسان العرب؛ لابن منظور، مادة حقق ١/١٣٩.

واصطلاحًا:

قال بعض أهل العلم: إنه مصلحة ثابتة للفرد أو المجتمع أو لهما معًا، يُقرِّرها الشارع الحكيم، وقيل: هو اختصاص يُقرِّر به الشارع سلطة أو تكليفًا، وقيل غير ذلك، والذي نراه مما سبق بيانه آنفًا – والله أعلم بالصواب – أن حقوق الإنسان في شريعتنا نحن المسلمين هي حق مستحق، وواجب لا يجوز المساس به، وينبغي احترامه للأفراد والجماعات والأمم، وبصرف النظر عن العقيدة أو الجنس أو اللون، في إطار الشريعة الخاتمة وتعاليمها السامية.

ونرى أن لكل إنسان الحق في حياة كريمة، تقوم على العدل والسلام، آمنًا على نفسه وماله وأهله، ولا يلحقه ضرر لفعل يُكبِّل حريته، طالما لم يعتد على حقوق الآخرين، وكان في حدود الشرع والقانون، ويدل على ذلك قول الله تعالى :﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، ولكن حقه هذا في الدنيا التي هي دار امتحان وعمل، لا دار جزاء وثواب، ولكن يوم القيامة يوم الحساب عن الأعمال والأقوال، يقام ميزان العدل الرباني ويأخذ كلَّ عبد بعمله، من طغى وتكبَّر ونشر الفساد في البر والبحر، أخذه بجريرته وظلمه، ولا يبخسه حقه، بل حسب ما قدمت يداه، ومَن استقام والتزم بالحقوق والواجبات المطلوبة منه شرعًا مع إخلاص نيَّته لله تعالى في العمل أو القول، فثواب ونعيم أبديٌّ سرمدي، ويدل على ذلك بقية الآية السالفة الذكر.

قال تعالى :﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا *إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٢٩، ٣٠].

وحقوق الإنسان في دنيا الناس ليس لها تعريف محدد، ولكن يدور معناها عند العقلاء بأنها: الحقوق والحريات المستحقة لكل شخص لمجرد كونه إنسانًا، ويستند مفهوم حقوق الإنسان على قداسة الحياة البشرية وتكريمها وعدم المساس بها؛ ليستطيع المرء أن يمارس دوره في المجتمع.

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:[٦٣]

٦٣- http://www.un.org/ar/documents/udhr/index.shtml#ap

هو بيان حقوق الإنسان الذي اعتمدته الأمم المتحدة بالإجماع، في ١٠ كانون الأول ١٩٨٤، ويُحدِّد الإعلان الحقوق الأساسية لكل شخص في العالَم، وهذا الإعلان هو المعيار الدولي لحقوق الإنسان.

والبيان العالمي لحقوق الإنسان وديباجته جاء بعد حربين عالميتين أنهكت البشرية، تحتوي بنوده على ثلاثين مادَّة؛ هي فكر وعصارة وتجارب العقل الإنساني لحرية وكرامة الإنسان، أيًّا كان انتماؤه وعقيدته وجنسه ولونه، وهي حرية مطلقة تُؤدِّي إلى نتائج سلبية تضر الأمم، وتدمر أخلاقيات الشعوب، ما لم يحدها حد، وإلا انتشرت الفوضى والفساد والشذوذ، وهذا ما حذَّرنا منه ربٌّ العالمين في القرآن، فقال تعالى :﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾]الروم: ٤١[.

قال السعدي – رحمه الله – في بيانها ما نصُّه:

"أي: استعلَن الفسادُ في البر والبحر؛ أي: فساد معايشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك؛ وذلك بسبب ما قدَّمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها"؛اهـ.[٦٤]

وسوف نرى أن الإسلام سبقَ هذا الإعلان وعلا وترقَّى بالإنسان إلى مستوى أنبل وأسمى؛ لينال حريته وكرامته حيًّا وميتًا، ويحفظ للمجتمعات قيمَها وأمنَها وعقيدتها، بعيدًا عن شطحات الفكر البشري الذي يُغلِّفه الهوى الذي يصد عن الحق، والأطماع الدنيئة، والميول العدوانية، والمذاهب الفكرية الشاذة، التي نفث الشيطان وأشعل وقودَها في قلوب بعض مَن يطلق عليهم مفكرون ونوابغ البشرية، فتردَّت أحوال المجتمعات إلى انحطاط فكري سقيم، حتى في البلاد المحسوبة على الإسلام.

وطغى الشعور بالقوة وحب السيطرة على المُثل العليا المتعارف عليها بين البشر، واغتيلت أحلام الشعوب وحقوقها المشروعة في حياة إنسانية كريمة، بسبب زيف الدعاية الكاذبة وأباطيل الداعين للسمو والرقيِّ، على أطلال تعاليم السماء والمثل العليا، وشرَعوا لهم قوانين ومبادئ بشرية غير عادلة،

---

[٦٤]–تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة ١/ ٦٤٣.

إما بإفراط في الحقوق للمستوى الذي يهلك الفرد والأمة من أجل غايات دنيئة، لا تراعي دينًا ولا حرمة، فتعاملت الدول القوية بغطرسة والكيل بمكيالين، لإذلال المجتمعات الضعيفة واستغلالها.

وسوف نُبيِّن عظمة الإسلام بما فيه من تعاليمَ سامية تترقَّى وتسمو بالحياة البشرية إلى آفاق عالية من السمو؛ ليدرك القاصي والداني أن الإسلام رسالة الله - عز وجل - للعالمين.

نظرة على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان:

جاء في ديباجة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان بعد الحرب العالمية الأولى والثانية:

"نحن شعوب الأمم المتحدة، وقد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحروب التي في خلال جيل واحد قد جلبت على الإنسانية مرَّتين أحزانًا يَعجِز عنها الوصف، وأن نُؤكِّد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان... إلخ."

وكل المواد الثلاثين لميثاق هيئة الأمم المتَّحدة التي نشأت عام ١٩٤٥، تدور حول حقوق الإنسان الأساسية وحريته الشخصية؛ مثل حرية الملكية الخاصة، وحرية الفكر والرأي، ومنع التعذيب والاعتداء، وعدم التمييز بين المواطنين بسبب العنصر، أو اللون، أو الدين، أو غير ذلك.

ونصت المادة الأولى منه على:

"يُولَد جميع الناس أحرارًا متساوينَ في الكرامة والحقوق، وقد وُهِبوا عقلاً وضميرًا، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضًا بروح الإخاء"، ولقد سبق الإسلام هذه المادة وغيرها، بل وجعل نظرته لكرامة الإنسان وحقه في الحياة وما له من واجبات وما عليه من حقوق، بمضمون أكثر شمولية، وبمعانٍ سامية، تُخاطب الوجدان والفطرة السوية والطبائع السليمة، ووضع حدودًا للطبائع المختلة والغرائز المنحلة؛ لتندمج مع الناس في المجتمع الذي ينتمي إليه، وتترقى ليدرك صاحب كل نفس منها الحقيقةَ الصافية الخالية من الهوى والشذوذ الفكري، فتعود نفسه لخالقها ورازقها تفتقر لرحمته وكرمه وعدله.

وأُكرِّر قولي :في القرآن والسنة وصايا فاقت هذه المواد حيويةً، وأظهرت عيوب النفس البشرية وعورتها وآفاتها، وبيَّنت بجلاءٍ لصاحبها الداء والدواء؛ حتى لا تميل نفسه مع كل ريح، فتهلك وتضل صاحبها.

مبدأ الثواب والعقاب في الإسلام:

باديَ ذي بَدْءٍ نقول:

إن الحرية في الإسلام ليست على إطلاقها؛ أي: إن الإنسان حر يفعل ما يشاء دون حساب أو عقاب من أحد، قطعًا لا، حتى في القوانين الوضعية والأعراف الدولية؛ فإن حرية الفرد ليس معناها الاعتداء على حرية الآخرين، أو الخروج عن المبادئ والقوانين والقيم التي تُنظِّم العَلاقة بين حق الفرد وحقوق المجتمع في القطر الواحد، وهذا من البديهيات المتعارف عليها.

والإسلام نبَّه لهذه الحقيقة، ففي حديث للنعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ المُدْهِنِ في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أسفلها، وصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمرُّون بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولا بد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم".[٦٥]

إذًا الإسلام لا يختلف مفهومُه عن ذلك من حيث المبدأ؛ فهو يخاطب رعاياه روحيًّا، وجعل الحساب والجزاء يوم القيامة، وتقوم تعاليمه على خوف العبد وقوة إيمانه بالله تعالى ترغيبًا وترهيبًا، وله مطلق الحرية في الاستقامة أو الانحراف، ولكن جعل للسلطان أو من ينوب عنه الحقَّ في إصلاح عوجه، حسب الضرر الذي تسبب به لنفسه أو لغيره، بالشرع الذي يأمر بالعدل حتى مع الخارج عن حدود الله، وعليه أن يتحمل عواقب عمله وتهوره، قال تعالى :﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾]النساء: ٥٨[.

قال السعدي – رحمه الله – في تفسيرها:

"وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبَر والفاجر، والولي والعدو، والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به"؛ اهـــ.[٦٦]

---

٦٥ - أخرجه البخاري برقم/ ٢٤٨٩، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما – باب القرعة في المشكلات.

٦٦ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مؤسسة الرسالة ١/ ١٨٣

ومن ثَمَّ يتبين لكل منصف أن العَلاقة بين الفرد والمجتمع في الإسلام عَلاقةٌ قائمة على معانٍ سامية، وتعاليم جليلة راقية، ويعيش الإنسان داخل إطارها مكرَّمًا ومعزَّزًا ومحبوبًا من الناس ورب الناس، فضلاً عن ثواب الله تعالى ووعده له بالجنة الموعودة إن أخلص نيته وعمله له - جل جلاله - ولا فارق في هذا بين الرجل والمرأة، قال تعالى :﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]؛ إذًا الحاصل مما ذكرنا بيانه يوصلنا إلى حقيقة بديهية، وهي أن الإسلام يزيد هذه الحرياتِ حيويةً متجددة دومًا بين الترهيب والترغيب، ويضع مبدأ لا ينكره العقلاء من الناس، وهو الذي تستقيمُ عليه حياة البشرية جمعاء دينًا ودنيا، وبغيره لن نجدَ لأي ميثاق أو وثيقة للحقوق والحريات صدًى وقبولاً، ويلتزم بها إقرارًا وعملاً شعوب العالم وسادتهم، مهما بلغت صياغته وبنوده درجة الكمال في الفكر الإنساني، ألا وهو "مبدأ الثواب والعقاب"، والله المستعان، وعليه التكلان.

الميثاق الإسلامي لحقوق الإنسان:

في خطبة الوداع بيَّن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المبادئ والقيم الأساسية لأي وثيقة لحقوق الإنسان، ولو أراد الإنسان الذي يتعطش للحرية والسكينة ونصرة الحق في آنٍ واحد، فلن يجد منهجَ حياة أفضل من خطبة الوداع، التي هي من وحي السماء على لسان الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم، قال تعالى :﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٣، ٤].

لقد فرَّقت هذه الخطبة بين عهدين: عهد الظلم والقوة والجهل والكفر البواح، إلى عهد العدل والأمان والعلم والإيمان، ونستطيع القول: إلى عهد يرسم للبشرية منهج حياة ذا آفاقٍ واسعة وحيوية متجددة ومبادئ دائمة لا تتغير ولا تتبدل في كل عصر ومصر.

وخطبة الوداع جاءت في أكثرَ من حديثٍ في الصحيحين وغيرهما، وسوف أكتفي هنا بالحديث الذي أخرجه البخاري، وهذا متنه: "عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم النحر، فقال: ((يا أيها الناس، أي يوم هذا؟))، قالوا: يوم حرام، قال: ((فأي بلد هذا؟))، قالوا: بلد حرام، قال: ((فأي شهر هذا؟))، قالوا: شهر حرام، قال: ((فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا))، فأعادها مرارًا، ثم رفع رأسه، فقال: ((اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت))، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي

نفسي بيده، إنها لوصيته إلى أمته: ((فليبلغ الشاهد الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض.[٦٧]))

وهذا أول ميثاق لحقوق الإنسان ممن لا ينطق عن الهوى، منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، وانتبه لها في قوله صلى الله عليه وسلم: ((فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا.))

وتنقسم بنود الوثيقة النبوية لحقوق الإنسان وكرامته التي وجَّهها النبي صلى الله عليه وسلم للناس أجمعين، وليس للجماعة المؤمنة فقط، على ثلاثة من كليات أو ضروريات الدين[٦٨]، وهي: حفظ النفس، والعِرض، والمال، ونبيِّنهم بإيجاز في السطور التالية:

الضرورة الأولى:

حفظ النفس وحق الحياة وحرمة الدماء:

ما من دينٍ رعى حقوقَ الإنسان كالإسلام، ومن أُولى هذه الحقوق حقُّ الحياة، وأكَّد الإسلام في القرآن والسنة على حرمة الدماء، فقال تعالى :﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢.]

قال الحافظ ابن كثير في تفسيرها ما مختصره: "أي: ومَن قتل نفسًا بغير سبب من قصاص، أو فساد في الأرض، واستحلَّ قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعًا؛ لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾؛ أي: حرَّم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلِم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار؛ ولهذا قال :﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾"؛ اهـــ.[٦٩]

---

٦٧ - أخرجه البخاري برقم/ ١٦٢٣– باب الخطبة أيام منى.

٦٨ - ضروريات الدين المشهورة خمس، وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وجعل بعض أهل العلم حفظَ العِرْض بدلاً من النسل، وجعلها بعضُهم ستة، فأضاف العِرض مع ماسبق آنفًا.

٦٩ -تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ٩٢/٣.

•والسنة بيَّنتْ أن قتل النفس بغير حقٍّ من كبائر الذنوب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات.[٧٠]))

ومن هذه الأدلة الشرعية يتبيَّن عظمةُ الإسلام الذي يدعو للحفاظ على الحياة البشرية، وأكثر من ذلك حرم قتل النفس وإزهاقها في غير الحق، وبيّن بسماحةِ تشريعه عقاب مَن قتل خطأ وبغير قصد منه، وهذا هو العدل الرباني والرحمة الإلهية التي خص الله بها أمة التوحيد.

وقولنا هذا نُبيِّنه في أمرين:

الأمر الأول :أن الإسلام حرَّم القتل بالانتحار بجميع أشكاله، وإزهاق النفس، سواء كان ذلك بقتلها برمي النفس إلى التهلكة، أو بالإضراب عن الطعام حتى الموت، أو ما أشبه هذا، قال تعالى :﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩].

قال السعدي – رحمه الله – في تفسيرها ما مختصره:

"أي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يقتل الإنسان نفسَه، ويدخل في ذلك الإلقاءُ بالنفس إلى التهلكة، وفعلُ الأخطار المُفضِية إلى التلف والهلاك؛ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتَّب على ذلك ما رتبه من الحدود"؛ اهـــ.[٧١]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجَّأُ بها في بطنه في نار جهنم، خالدًا مُخلدًا فيها أبدًا، ومَن شرب سمًّا فقتَل نفسه، فهو يَتحسَّاه في نار جهنم خالدًا مُخلَّدًا فيها أبدًا، ومَن تردَّى من جبلٍ فقتل نفسَه، فهو يتردَّى في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا.[٧٢]))

وقال العلامة ابن باز – رحمه الله:–

---

٧٠ - انظر: حديث رقم ١٤٤ في صحيح الجامع.

٧١ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مؤسسة الرسالة ١/١٧٥

٧٢ - أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة برقم: ١٥٨ – باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه.

"الانتحار من أكبر الكبائر، وقد قال الله – جل وعلا :- ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا *وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾]النساء: ٢٩، ٣٠]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن قتل نفسه بشيء، عُذِّب به يوم القيامة))، فالانتحار من أقبح الكبائر، لكن عند أهل السنة والجماعة لا يكون كافرًا، إذا كان مسلمًا يُصلِّي، معروفًا بالإسلام، موحِّدًا لله – عز وجل – ومؤمنًا به سبحانه وبما أخبر به، ولكنه انتحر لأسباب، إما مرض شديد، وإما جراحات شديدة، وما أشبه ذلك من الأعذار، فهذا الانتحار منكر وكبيرة من كبائر الذنوب، ولكنه لا يخرج به من الإسلام إذا كان مسلمًا قبل ذلك، لا يخرج بهذا الانتحار من الإسلام، بل يكون تحت مشيئة الله – سبحانه وتعالى – كسائر المعاصي؛ إن شاء الله عفا عنه وأدخله الجنة بإسلامه وتوحيده وإيمانه، وإن شاء ربُّنا عذَّبه في النار على قدر الجريمة التي مات عليها، وهي جريمة القتل.[٧٣]"

قلتُ: ومن عظمة شريعة الإسلام، وأعظم دليل على رعايته وحفظه للنفس البشرية وحقها في الحياة – أنه أباح المحرَّمات عند الضرورة والاضطرار، ودليل ذلك قوله تعالى في القرآن الكريم :﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾]الأنعام: ١٤٥].

قال السعدي – رحمه الله – في بيان ما نريد به الاستدلال من الآية: "فهذه الأشياء المحرَّمات مَن اضطر إليها؛ أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾؛ أي :﴿ غَيْرَ بَاغٍ ﴾؛ أي: مريد لأكلها من غير اضطرار، ولا متعدٍّ؛ أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته، ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾؛ أي: فالله قد سامح مَن كان بهذه الحال"؛ اهـ.[٧٤]

---

٧٣ - من فتاوى نور على الدرب.

٧٤ – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مؤسسة الرسالة ١/٢٧٧.

الأمر الثاني :ما ذكرناه آنفًا عمَّن قتل نفسه عمداً، أما مَن قتل نفسه خطأ، أو دون قصد منه لغفلة، فالإسلام كرَّم هذه النفس المؤمنة، وجعلها في عداد الشهداء، ودليل ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: ((الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله.[٧٥]))

•وفي رواية أخرى لمالك في الموطأ من حديث جابر بن عَتِيك: ((الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله، فذكر: المطعون، والمبطون، والغَرِق، وصاحب الهدم، وصاحب ذات الجنب والحرق، والمرأة تموت بجُمْعٍ شهيدة.[٧٦]))

•وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله:-

"اختُلِف في سبب تسمية الشهيد شهيدًا، فقال النضر بن شُميل: لأنه حيٌّ، فكأن أرواحهم شاهدة؛ أي: حاضرة.

وقال ابن الأنباري: لأن الله وملائكته يشهدون له بالجنة.

وقيل: لأنه يشهد عند خروج روحِه ما أُعِدَّ له من الكرامة..."؛ اهـ.[٧٧]

---

[٧٥] - أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي هريرة؛ البخاري برقم/٢٦١٧ - باب الشهادة سبع سوى القتل، ومسلم برقم/ ٣٥٣٨، باب بيان الشهداء.

[٧٦] - صحح الألباني إسناده في أحكام الجنائز ص٣٩.

[٧٧] - انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ لابن حجر العسقلاني - باب الشهادة سبع سوى القتل، ٨/٤٣٨

قلت :وذكر ابن حجر أقوالاً أخرى، ولكن يكفي ويشفي وصفُ النبي صلى الله عليه وسلم "بالشهيد"؛ لندرك لأيٍّ مدى كرَّم الإسلام هذه النفس ورعاها في حياتها وبعد مماتها.

الثواب والعقاب شرطٌ لحفظ حق الحياة:

بعد أن بيَّنا حق الإنسان في الحياة وحرمة دمه وقتل نفسه، ينبغي أن ندرك أن الإقرار بحق الحياة للإنسان في شريعتِنا ليس مطلقًا كما ذكرنا سلفًا، والاندفاع للأخذ بوثيقة حقوق الإنسان ودعوة الشعوب المسلمة لتقبُّلها على علاَّتها، والعمل بها وتطبيق بنودها في الدساتير والقوانين الوضعية لإرضاء المنظمات الدولية، بضغط من الدول المسيطرة على الشعوب المستضعفة التي لا تحكم بشرع الله تعالى دون مراعاة لسلبيتها ووَعْيٍ لعواقبها المخالفة لشريعتنا على مستوى الأفراد والجماعات - سوف يُؤدِّي للفوضى الخلاَّقة بين الناس ولو بعد حين.

ونطرحُ هنا سؤالاً قد يُثيره أصحاب الحرية التي لا يحدُّها حدٌّ، ولا ينظمها دين أو قانون :لماذا نهاجم الوثيقة، ونعيب ونشكك في صلاح بنودها وفوائدها للناس؟

والجواب واضحٌ جلي؛ لأنها تُؤدِّي إلى نتيجة سلبية على جانب عظيم من الخطورة، وإلى محاربة الشريعة والتشكيك فيها، ووصفها بالهمجية والوحشية، وخصوصًا فيما يتعلق بالحدود في حق الزاني والسارق والمرتد، وغير ذلك؛ مما يشيع الفوضى في الأمة، والفتنة بين أفراد المجتمع، ويعصف بأمنه وسلامته، وقوة ترابطه وتماسكه ضد أعداء الدين، ويعلو فيه شرار الخلق من أهل المنكر على أهل المعروف، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الرسالة الخاتمة هي التي ارتضاها الله تعالى لعباده، وهي تشملُ القرآن والسنة، وفيهما وحي السماء كلامُ الله تعالى، وفيه الحق كل الحق؛ لأنه الخالق - جل في علاه - والبشر كلهم عباده، وهو أدرى بما يصلحهم دينًا ودنيا، وليس بعد الحق إلا الضلال.

ونقول: إن الإسلام لا يرضى بسفك الدماء، ويُحرِّم قتل النفس البشرية بغير حق، ولكن يبيح قتلها بالحق إن خرج صاحبها عن الشرع المطهر، واستحق القصاص والعقاب، وصار خطرًا على الأمة وحياة أفرادها وشعوبها، ويدل على ذلك:

قوله تعالى :﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾]الإسراء: ٣٣.[

وقول الله تعالى :﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾]البقرة: ١٧٩.[

قال العلامة ابن العثيمين – رحمه الله -: "فإن قيل :كيف يكون لنا في القصاص حياةٌ، مع أننا قتلْنا القاتل، فزِدنا إزهاق نفس أخرى؟

فالجواب: نعم، يكون لنا في القصاص حياةٌ، بأن القَتَلة إذا علِموا أنه سيُقتَصُّ منهم امتنعوا عن القتل، فكان في ذلك تقليل للقتل، وحياة للأمة؛ ولهذا جاءت منَكَّرة؛ للدلالة على عظم هذه الحياة، فالتنكير هنا للتعظيم؛ يعني حياةً عظيمة شاملة للمجتمع كله، أما بالنسبة للقاتل، فيقتل، لكن قتل القاتل حياة للجميع"؛ اهـ.[٧٨]

قلتُ :وفضلاً عن قتل النفس للقصاص لتعيش الشعوب وأفرادها في أمن وأمان، فالإسلام يُبيح إزهاقها برضا نفس؛ طمعًا في الثواب، ودفاعًا عن الحق أو العرض أو المال، ويحرم قتلها وإزهاقها لغير ذلك، وهي أمور لا ينكرها ويهاجمها إلا جاحد معاند للسعادة البشرية وحقها الطبيعي للحرية بلا زيف أو خداع، ويفتقد للرؤية الإيمانية والفطرية للمجتمع المثالي، الذي لا يقوم إلا على مبدأ الثواب والعقاب، والآيات والأحاديث في هذا الصدد كثيرة، سوف نُبيِّنها في سياقها بهذه الرسالة، ونبدأ ونقول بحول الله وقوته:

يُبيح الإسلام إهلاكَ النفس في بعض الحالات، أذكر اثنين منهما في هذه العجالة:

١-الجهاد في سبيل الله تعالى دفاعًا عن الأمة:

لا يخفى أن الدفاع عن الوطن أو الأمة دفاع عن الدين، وهذا أمر معلومٌ ومُقَر به في جميع الأديان، وليس في شريعتنا كمسلمين فقط.

قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾]التوبة: ١١١.[

وفي السنة الصحيحة قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يُخرِجُه إلا إيمان بي وتصديقٌ برسلي، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على

٧٨ – تفسير العلامة محمد العثيمين؛ مصدر الكتاب: موقع العلامة العثيمين ٤/٢٤٩.

أمتي ما قعدتُ خلف سرية، ولوددت أني أُقتَل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل[٧٩]))، فقتل النفس لهذا الغرض النبيل مأمور به، ولصاحبها وعد الله تعالى الذي لا يُخلِف وعده أبدًا بعدله وفضله.

قال تعالى :﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥].

٢-تطبيقًا للحدود الشرعية لصلاح الأمة وسلامتها:

الأمة القوية لا تنخدع بما يُروِّج له البعض من أعداء الدين وأنصار الحرية، أن تطبيق الحدود في الشريعة الإسلامية غير إنساني، ووحشية وهمجية، وضياع لحقوق الإنسان، وهلمَّ جرًّا.

في الوقت الذي تنهارُ قِيَم المجتمعات المتحرِّرة منهم التي تنظم حياتهم في إطار هذه الحقوق الخالية من الردع والعقاب، فانتشرت بينهم الفواحش والمنكرات انتشار النار في الهشيم، وأغرقَتهم في هوة ما لها من قرار، وأصبحوا هَلْكَى وصرعى في شهوات الدنيا الفانية، التي سلبت آدميَّتهم واحترامهم لأنفسهم، إلا مَن رحم ربي منهم.

وأذكر هنا أدلة إباحة قتل النفس البشرية التي استحقَّت أن يتطهر منها المجتمع من أجل حياة أفراده واستقامتهم.

يبيح الإسلام قتل نَفْس الزاني المحصن:

لماذا؟!

لأن الزنا جريمة شنيعة حرَّمها الله، ووصفها تعالى بقوله :﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

---

[٧٩] - أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة برقم: ٣٥ – باب الجهاد من الإيمان.

والزنا يجمع خِلال الشر كلَّها؛ لهذا كان لا بد من الردع، والشرع يأمر بالجلد فقط لغير المحصن – أي: البكر الذي لم يتزوج – سواء كان رجلاً أو امرأة، وهذا من سماحة الدين ونظرته الرحيمة للإنسان في لحظات ضعفه بسبب شهوة غلبته وشيطان أغراه.

قال تعالى :﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾]النور: ٢.[

وأما المحصن، فقد شرع في حقه الرجم حتى الموت، فهو غير معذور لضعفه وشروره، والدليل على الرجم غير موجود في القرآن، ولكن موجود في السنة ومتواتر، ودليل ذلك حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، ألا وإن الرجم حق على من زنى وقد أحصن إذا قامت البينة أو كان الحَبَل أو الاعتراف – قال سفيان: كذا حفظتُ – ألا وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمْنا بعده.اهـ [٨٠]

يبيح الإسلام قتل المرتدِّ عن الدين بعد إسلامه:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا يحلُّ دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصان، أو ارتد بعد إسلام، أ قتل نفساً بغير حق فيقتل به.[٨١]))

وقال صلى الله عليه وسلم: ((مَن بدَّل دينه، فاقتلوه.[٨٢]))

قال ابن تيمية – رحمه الله:–

"وأما قوله صلى الله عليه وسلم: ((مَن بدَّل دينه، فاقتلوه))، فنقول بموجبه، فإنما يكون مبدلاً إذا دام على ذلك واستمر عليه، فأما إذا رجع إلى الدين الحق فليس بمبدل، وكذلك إذا رجع إلى المسلمين، فليس بتارك لدينه مفارق للجماعة، بل هو متمسك بدينه، ملازم للجماعة، وهذا بخلاف القتل والزنا، فإنه فعلٌ صدر عنه، لا يمكن دوامه عليه بحيث إذا تركه يقال: إنه ليس بزانٍ ولا قاتل، فمتى

---

٨٠ - أخرجه البخاري برقم: ٦٣٢٧ – باب الاعتراف بالزنا.

٨١ - انظر حديث رقم: ٧٦٤١ في صحيح الجامع.

٨٢ - جزء من حديث أخرجه البخاري برقم: ٢٧٩٤ – باب لا يعذب بعذاب الله.

وجد منه ترتب حده عليه، وإن عزم على ألا يعود إليه؛ لأن العزم على ترك العود لا يقطع مفسدة ما مضى من الفعل[٨٣]"؛ اهـــ.

يبيح الإسلام قتل مَن عمِل عمَل قوم لوط عليه السلام:

قوم لوط عليه السلام هم مَن وصَفهم قرآنُ رب العالمين بقوله تعالى :﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ *إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾]الأعراف: ٨٠، ٨١.[

فنفهم من هذه الآيات البينات أنهم تركوا الزواج من النساء اللاتي خلقهن الله تعالى سكنًا للرجال، يكمل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى :﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾]الروم: ٢١[، واستباحوا إتيان الرجال بشهوة في أدبارهم، وهذا فعل في غاية الشناعة والخبث، وشذوذ عن الفطرة السويَّة، وترفضه الشرائع السماوية؛ لذا كان عقابهم من الله بقدرِ شناعة وقبح جريمتهم في حق البشرية.

قال تعالى :﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ *مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾]هود: ٨٢، ٨٣.[

وقوم لوط مِن شرار الخلق، ومن يعمل بعملهم فهو يحشر معهم؛ لأن المرء مع من أحب، والدليل على إزهاق نفس هؤلاء حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به)).[٨٤]

والمجتمعات التي تدافع عن الحرية المطلقة بلا قيد أو مبدأ للثواب والعقاب، شرعوا لهم القوانين التي تنظِّم العلاقة بينهم، وهم من شرار خلق الله، وهذا شأنهم، ولكن رسالة الله للعالمين ترسم الطريق السوي لأتباعها، وتسمو بالنفس البشرية والعلاقات الإنسانية إلى آفاق عالية من الرقي واحترام الذات.

---

٨٣ - انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول؛ لابن تيمية ٢/١٠٤.

٨٤ - صحح الألباني إسناده في الترغيب والترهيب برقم: ٢٤٢٢ - باب الترهيب من اللواط.

وبعد:

فكما ذكرنا من قبلُ أن الإسلام وشريعته ينتصر لحق الإنسان في الحياة، طالما كان في إطار الشرع واحترام حقوق الآخرين، فإن شذ وخالف صار عضواً فاسدًا يجب استئصاله؛ ليستقيم أمر الأمة كلها وسلامتها، حتى لا تنهار في الفساد والإفساد.

وثبت هذا المعنى من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَثَل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)).[٨٥]

الضرورة الثانية: حفظ العرض والدفاع عن الشرف:

العِرض والشرف لا يُقدِّره إلا أصحاب النخوة والدين، وكان العرب في جاهليتهم وشركهم قبل البعثة يتمسَّكون بهما، ولا تنهض أمة سوية تطلب الرقي والسمو وأعراضُهم مباحة، وأموالهم وممتلكاتهم مستباحة لمن لا رادع له من دينٍ ولا قانون ولا ضمير.

ولأن الإسلام رسالة الله للعالمين، وفيه هدى ونور للبشرية جمعاء، فقد جعل لمن يدافع ويُهلك نفسه الأبية دفاعًا عن العِرض والأهل والمال منزلة عالية، وكرامة ربانية، وجعله من الشهداء، ويدل على ذلك قول الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم: ((مَن قُتل دون ماله فهو شهيد، ومَن قُتِل دون دمه فهو شهيد، ومَن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومَن قُتِل دون أهله فهو شهيد.[٨٦]))

وينبغي على مَن يستحلُّ ذلك كله الحذر من الله وعقابه، ولا تغره الحرية المطلقة، ليُهلك الحرث والنسل، فشريعتنا متوازنة ترهيبًا وترغيبًا، تجمع ما بين الثواب والعقاب؛ ليستقيم أمر العباد في دينهم ودنياهم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾]الأحزاب: ٥٨[.

---

[٨٥] - أخرجه مسلم برقم: ٤٦٨٥ – باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

[٨٦]– أخرجاه في الصحيحين من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما؛ البخاري برقم: ٢٣٠٠ – باب مَن قاتل دون ماله، ومسلم برقم: ٢٠٢ – باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه.

قال الحافظ ابن كثير في بيانها ما مختصره:

"أي: ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه و لم يفعلوه، ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ وهذا هو البهت البيِّن؛ أن يُحكَى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم[٨٧]"؛ اهـــ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله)).[٨٨]

وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن كانت له مظلمة لأخيه من عرضِه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح، أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)).[٨٩]

قال العلامة ابن العثيمين – رحمه الله:-

))"كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه))؛ يعني أن المسلم حرام على المسلم في هذه الأمور الثلاثة؛ أي في كل شيء؛ لأن هذه الأمور الثلاثة تتضمَّن كل شيء: الدم: كالقتل والجراح وما أشبهها، والعِرض: كالغيبة، والمال: كأكل المال، وأكل المال له طرق كثيرة، منها السرقة، ومنها الغصب، وهو أخذ المال قهراً، ومنها أن يجحد ما عليه من الدَّين لغيره، ومنها أن يدَّعي ما ليس له، وغير ذلك، وكل هذه الأشياء حرام، ويجب على المسلم أن يحترم أخاه في ماله ودمه وعرضه[٩٠]"؛ اهـــ.

ومن ثَم كان الإسلام خير حافظ لهذه الأمة من الانهيار الأخلاقي، رغم التخلف العلمي، وجمود أفراده في فهم عظمة دينهم وشريعتهم التي تحثهم على العمل والعلم في عصرنا الحالي، ولكن الغالبية

---

٨٧ - تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ١/ ٤٨٠.

٨٨ - جزء من حديث أخرجه مسلم برقم: ٤٦٥٠ – باب تحريم ظلم المسلم وخذله

٨٩ - أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة برقم: ٢٢٦٩ – باب من كانت له مظلمة عند الرجل.

٩٠ - انظر شرح رياض الصالحين؛ لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين ١/ ٢٦٩ – باب تعظيم حرمات المسلمين.

العظمي منهم لديهم إصرار على الالتزام والتديُّن إلا القليل من السفهاء المتعلمين، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا؛ أمثال أبي جهل، والوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وغيرهم ممن ظل على كفره وعناده، وصده ورده، وهم منا، ويتكلمون بألسنتنا من خطباء الفتنة في كل عصر وزمان.

وقد حذرنا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من هؤلاء؛ قال تعالى :﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا *الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا *أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾]الكهف: ١٠٣ - ١٠٥].

وفي حديث حذيفة بن اليمان قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((دعاة على أبواب جهنم؛ مَن أجابهم إليها، قذفوه فيها))، فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: ((نعم، قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا))، قلت: يا رسول الله، فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: ((تلزم جماعة المسلمين وإمامهم))، فقلت: فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام، قال: ((فاعتزل تلك الفِرَق كلها، ولو أن تعَضَّ على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك.[٩١]))

الضرورة الثالثة: حفظ المال وحق التملك:

المال في اللغة يطلق على كل ما يملكه الإنسان من الأشياء، وسواء كانت أموالاً سائلة، أو عقاراتٍ أو أراضيَ، أو غير ذلك.

وحفظ المال من ضروريات الدين الخمس، وحق تملكه في الإسلام غاية في السمو والرقي، فهو وسط بين الإفراط والتفريط، فهو يحفظه ويصونه، ويحرِّم نهبه وسرقته، والاعتداء على حق صاحبه في تملكه، وفي نفس الوقت يحثه على حقوق الآخرين والمجتمع الذي يعيش فيه ويثيبه على ذلك.

---

٩١ - أخرجاه في الصحيحين: البخاري برقم: ٦٥٥٧ – باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، ومسلم برقم: ٣٤٣٤ – باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.

فالإسلام يختلف عن الأنظمة والمذاهب الدنيوية التي لا تراعي الحق والعدل في حق الإنسان في ماله، فمثلاً الرأسمالية تدعو لتضخيم شأن الملكية الفردية، وتعطي للفرد حق التملك بلا حدود، أو مبدأ للثواب والعقاب، وتطلق له العنان ليمتلك ما يشاء، وينمي ماله كيفما شاء دون قيود، طالما كان ذلك في إطار القانون، ودون مراعاة أن في ماله حقًّا للآخرين وللمجتمع الذي يعيش فيه، والشيوعية تلغيها وتحرمها؛ إذ ليس لأحد أن يتملك عقارًا أو أرضًا أو مصنعًا، أو ما أشبه هذا من وسائل الإنتاج التي تحتكرها الدولة، ولا تسمح للفرد بحق التملك لأي وسيلة إنتاج؛ لأنها هي التي تملك كل مصادر الإنتاج، وتمنع الفرد من التملك، ولو كان ماله حلالاً لا شُبهة فيه!

وفي كلا النظامين مساوئ ومفاسد جمة، يدركها مَن ذاق مرارتها، والإسلام بعظمة تشريعه الرباني وسطٌ بين الإفراط والتفريط، ويسمو بحق الفرد في ماله، مع حفظ حقوق الآخرين، وعلى مبدأ الثواب والعقاب الذي أشرنا إليه تندمج وتتعاون المصالح الخاصة وحق الفرد في التملك بالمصلحة العامة، في تناغم متناسق ومثمر، كما سوف يتبين في السطور التالية، ونستطيع تلخيص الأمر في أمرين:

أولهما: حق التملك للإنسان وحرمة ماله:

قلنا: إن الإسلام يبيح تملُّك الإنسان للمال، ويحرم الاعتداء عليه بأي صورة من الصور التي تسلب من الإنسان حقه شرعًا، وقد وصف الله تعالى ذلك بالباطل، فقال تعالى :﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

قال العلامة ابن العثيمين – رحمه الله:-

"حرَص الشارع على حفظ الأموال؛ لقوله تعالى :﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾؛ ولأن الأموال تقوم بها أمور الدين وأمور الدنيا، كما قال تعالى :﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء: ٥."]

ثم قال في تفسير الآية ما مختصره:

"والإدلاء: أصلها مأخوذ من أدلى دلوه، ومعلوم أن الذي يُدلي دلوه يريد التوصل إلى الماء، فمعنى: (تدلوا بها إلى الحكام)؛ أي: تتوصلوا بها إلى الحكام لتجعلوا الحكام وسيلة لأكلها، بأن تجحد الحق الذي عليك وليس به بينة، ثم تخاصمه عند القاضي، فيقول القاضي للمدعي عليك: هات بينة، وإذا لم يكن للمدعي بينة، توجهت عليك اليمين، فإذا حلفت برئت، فهنا توصلت إلى جحد مال غيرك

بالمحاكمة، هذا أحد القولين في الآية، والقول الثاني: أن معنى (تدلوا بها إلى الحكام)؛ أي: توصلوها إليهم بالرشوة ليحكموا لكم، وكلا القولين صحيح[٩٢]"؛ اهـ.

قلت: ومن أجل حفظ حق الإنسان في ماله، حث الله تعالى وعلى لسان النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ترهيبًا وترغيبًا على حق المال وحرمة أخذه بالباطل، والأدلة كثيرة، أذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

- حرَّم السرقة :﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد.[٩٣]))

- وحرم الرشوة:

وفي حديث عبدالله بن عمرو قال: "لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشيَ والمرتشي."

- وحرم الغش:

لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: ((مَن حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا.[٩٤]))

- وحرم الربا:

فقال تعالى :﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

قال ابن العثيمين – رحمه الله" :- ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾؛ أي: الذين يأخذون الربا فينتفعون به بأكل أو شرب، أو لباس أو سكن، أو غير ذلك، لكنه ذكر الأكل؛ لأنه أعم وجوه الانتفاع،

---

٩٢ – تفسير العلامة محمد العثيمين ٤/٢٩٤.

٩٣ - أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة برقم: ٨٧ – باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي – والبخاري مثله برقم: ٦٣١٢ – باب إثم الزناة.

٩٤ – انظر حديث رقم: ٦٢١٨ في صحيح الجامع.

وأكثرها إلحاحًا، والربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى :﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ﴾]الحج: ٥[؛ أي: زادت، وفي الشرع: زيادة في شيئين منع الشارع من التفاضل بينهما[٩٥]"؛ اهـ.

ثانيهما: حق الله تعالى وثوابه للعبد:

المال نعمة من الله تعالى يمُنُّ بها على من يشاء، والواجب على الإنسان أن يتقي الله ويُخرِج من ماله ما هو حق معلوم للسائل والمحروم، قال تعالى :﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾]الذاريات: ١٩[.

•ويحث الإسلام أتباعه من المؤمنين على الحرص على الإنفاق والاعتدال في الإنفاق، فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾]الفرقان: ٦٧[، وفي نفس الوقت نهى عن التبذير في المال من غير طائل أو فائدة، فقال تعالى :﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾]الإسراء: ٢٦، ٢٧[؛ ولأن الإسلام رسالة الله للعالمين فيأمر في شريعته كل صاحب مال أن يُطهِّر ماله بالصدقات والزكاة المفروضة؛ لِما في ذلك من إصلاح، ونشر للمحبة، والتكافل، والتعاون، فجمع بين حق العبد في ماله وحق العباد، وها هي الأدلة:

•شريعة الإسلام تأمر بالزكاة، والزكاة أحد أركان الإسلام الخمسة، وقد اقترنت بإقامة الصلاة في أكثر مواضعها التي ذكرت في القرآن الكريم، قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾]البقرة: ٢٧٧[.

•وأمر الإسلام بالصدقة فضلاً عن الزكاة، وحث على الإنفاق، والتخلص من البخل، فكل مال للصدقة لا يضيع ولا ينقص، بل هو عند الله تعالى ينمِّيه ويزيده، قال تعالى :﴿ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾]التغابن: ١٧[، وقال تعالى :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾]التوبة: ١٠٣[.

---

٩٥ – تفسير العلامة محمد العثيمين ٥/٢٩٦

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.[٩٦]))

وعنه أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيِّب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يُربِّيها لصاحبها كما يُربِّي أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل.[٩٧]))

إذاً، بعد كل هذا البيان المستفيض، يتبين لكل منصفٍ ولبيبٍ، أن الإسلام يبين بجلاء ويقرر في هذه الوثيقة النبوية زيف الدعاوى الكاذبة بأنه دين إرهاب ودماء.

ونقولها واضحة جلية لكل باحث عن حقيقة هذا الدين:

إن الإسلام دين متوازن، صالح لكل زمان ومكان، تجمع شرائعه بين مبدأ الثواب والعقاب، والترهيب والترغيب، لا يطغي هذا على ذاك، ويحفظ حق الفرد والأمة معًا، ويُلزِم الإنسانَ بالشريعة التي تُنظِّم حياته بقوة القانون إن أطاع هواه وضل طريقه؛ ليرتدع ويعود إلى الحق الذي يحفظ إنسانيته هو وغيره تارة، وتارة أخرى يخاطب وجدانه وفطرته السوية التي إن شاع فيها نور الإيمان في قلبه، علا وترقَّى، وصار عضواً فعالاً في المجتمع الإنساني الذي يقوم على العدل والمحبة والمساواة له ولغيره من بني جنسه من حقوق بوحي السماء، لا يسلبها منه أحدٌ كائنًا مَن كان، وعليه ما عليهم من واجبات، لا فارق بينه وبينهم بسبب اللون أو الجنس أو اللغة، الكل سواسية، وإنما يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح.

المبحث الثالث

[٩٦] - أخرجه مسلم برقم: ٤٦٨٩ – باب حديث رقم: ٧٦٤١ في صحيح الجامع.

[٩٧] – أخرجه البخاري برقم: ١٣٢١ – باب الصدقة من كسب طيب.

الإسلام والمجتمع الإيماني المثالي

باديءَ ذي بدء نقول: إننا لا نقصد بالمجتمع المثالي المجتمعَ الخالي من العيوب، الذي يجمع أفرادُه كلَّ القِيم المثالية، وخلت تصرفاتُهم وسلوكياهم من الآفات والمعاصي، كما تخيله الفلاسفة، مثل: أفلاطون وأمثاله، قديمًا وحديثًا؛ فهذا حُلم يراود أذهان الفلاسفة والحالمين، وهو ضرب من الخيال المحض، لماذا؟

لأنه مجتمعٌ لا وجود له في دنيا الناس، ولا علاقة له بالواقع، وقطعًا هذا ما لا أقصدُه في هذه الدِّراسة.

بل الثابت في عصرِ النبوة ورسولُ الإسلام حيٌّ يرزَق بين الناس في المجتمع المدني أنه كان هناك شارب الخمر، والزاني، والسارق... إلخ.

وغيرها من الموبقات التي وقَع فيها بعضُ ضعاف الإيمان، وكانت هناك حدود زاجرة ورادعة، تطبيقًا لمبدأ الثواب والعقاب لمن يخرُجُ عنها، ويبارز ربَّه بالمعاصي، حتى لا تنهارَ قِيَم المجتمع كله، فيصير مجتمعًا منحطًّا بسلوك وشذوذِ بعض أفراده عن الفطرة السوية، فيفسد الحرث والنَّسل، كما نرى في عصرِنا الحاضر في كثيرٍ من المجتمعات الغربية أو المحسوبة على الإسلام، التي دمَّرها الانحطاط، وإدمانُ الشهوات، وإشباع الغرائز، بلا قيدٍ أو شرط، حتى فسَدت كثيرٌ من أخلاق الناس وانحطت - إلا مَن رحِم ربي - للمستوى البهيمي والحيواني.

فالحاصل أننا نقصِدُ بالمجتمع الإيماني المثالي المجتمعَ القائمَ على تعاليمِ ووحي السماء؛ من الكتاب والسنَّة المطهرة، الذي يجمع بين الدِّين والدنيا، ويحث أفرادَه على العبادة والتقوى لله تعالى، والتعاون والتكافل، والرحمة والعدل، والتسامح والمساواة في المعاملة بين الجميع؛ قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠].

وفي نفس الوقت مجتمعًا يلبِّي نداء الفطرة الإنسانية والطبيعية بتعاليمَ سامية راقية، بلا إفراط أو تفريط، كما سوف نرى في السطور التالية، وكل ذلك في تجانسٍ مثمر، وتطبيق لوحي السماء، بلا تنطُّع ممقوت، ولا تعصُّب مذموم.

وفي تاريخ الإسلام تجربةٌ رائدة؛ فقد وُجدت المجتمعاتُ المثالية، القائمة على منهج الله تعالى في القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية، وكفى بشهادة النبيِّ صلى الله عليه وسلم وتزكيته لهم، وهو الذي لا ينطِقُ عن الهوى :﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى *إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾]النجم: ٣، ٤].

بقوله:))خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم))[٩٨]، وهذه القرونُ الثلاثة هي لأجيالٍ كانت مثالاً للقدوة الحسنة والإيمان الحق الصادق، وأقصد بهم جيلَ أصحاب النبي، رضي الله عنهم أجمعين، وجيل تلاميذهم التابعين، وجيل أتباع التابعين، وهم النموذجُ الفريد الناجح، الذي وضَع اللَّبِنة الأولى لكل المجتمعاتِ الإسلامية التي تخطو خطواتِها الأولى نحوَ المثاليةِ الواقعية على منهجٍ ربَّاني.

فالمجتمع المثاليُّ هو تلك الحِقبة من عُمُرِ البشرية في هذه القرون الثلاثة، كنموذج للمثالية الواقعية التي تجمَعُ بين الدِّين والدنيا؛ عقيدةً وعبادة، وأخلاقًا وشريعة.

مقومات ودعائم المجتمع المثالي الإيماني:

المجتمع المثالي الحق له ملامحُ لا تخفى على ذي البصيرة الإيمانية، وله مقوِّمات ودعائمُ لنجاحه من رُوح الشريعة الرَّبانية وتعاليمها السمحة، من نصوص الوحيين، وليس من وحي الشيطان والهوى الذي يصد الإنسانَ ويُبعِده عن الحق، وهو واضح جليٌّ؛ لجهلِه المطبق بدين الفطرة الذي جاء به نبيُّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ليظهر إعجاز الشريعة وسماحتها، ويختصر المسافات والخطوات للمجتمعات المتعطشة للمثالية الواقعية التي يؤيِّدُها وحي السماء، فتجمع بين رضا الرب - جل في علاه - وراحة الإنسان السوي المؤمن التقي، ومَن شذَّ وتمرَّد فقد تعرَّض للعقاب في الدنيا، وسَخَط الله تعالى عليه في الآخرة.

وسوف نركز في هذا المبحث - في حديثنا عن المجتمع الإيماني المثالي - على أهمِّ مقوماتِ ودعائمِ المجتمع الإيماني المثالي، على المستويين الفردي والجماعي، وبشرح العلماء الثِّقات، وبالأدلة الشرعيةِ من الكتاب والسنَّة المطهَّرة؛ لتظهرَ صحةُ ما ندعو إليه في هذا المبحث، وتنكشف الغُمَّة عن عيون المسحورين والمخدوعين بالمجتمعات المنحلة أخلاقيًّا، والضالة دينيًا، رغم تقدُّمهم العلمي، ونبين عظَمَةَ إسلامنا ودِيننا وتعاليمه وحقائقه الصافية، وأنه رسالةُ الله للعالَمين.

٩٨- رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم / ٣٣٧٨ - باب: فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومسلم حديث رقم/ ٤٦٠١ - باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

ونبدأ ونقول بحول الله وقوَّته: إن مقوماتِ المجتمع الإيماني المثالي كثيرة، ولكن أهم ركائزه أربعة، ونذكرها هنا مع الشرح والبيان:

الركيزة الأولى: إقامة الشريعة الإسلامية بحذافيرها، وتطبيقها كمنهج حياة للأمَّة:

الشريعة عمومًا هي كلُّ ما جاء من تعاليمَ وأوامرَ ونواهٍ وحدود.. إلخ، في نصوص الوحيين؛ القرآن والسنَّة، ويلزم المسلمين العملُ بها، وتطبيقها، والدفاع عنها؛ فهي المحجَّةُ التي جاء بها نبينا محمدٌ صلى الله عليه وسلم من عند ربه للعالَمين ليكون لهم نذيرًا وبشيرًا.

قال تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

والشريعةُ الإسلامية شريعةٌ عامة لكل زمان ومكان، لا تتغيَّر ولا تتبدَّل بتغيُّر الظروف والأحوال والأهواء.

قال تعالى :﴿ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣].

والشريعةُ الإسلامية بما فيها من تنظيم وتشريع وحدود وفروض.. إلخ: منهجُ حياة، تنظم العلاقة بين الناس في دنياهم، وتربطُهم بربهم وخالقهم لأُخراهم، وتُنير بصائرهم ونفوسهم لطريق الحقِّ والرشاد، وليست مجرد أوامرَ ونواهٍ بين العبد وربه، إن شاء فعَلها، وإن شاء تركها، أو قصصٍ للسابقين للعبرة والعظة في قرآن يتلى، كما يتبادر إلى ذهن أصحاب القلوب السقيمة، لا غير، ولا علاقة له بحياة الناس؛ فهذه فِرْيةٌ يُشيعها المبطلون، بل القرآنُ وما فيه من تشريعٍ: نظامٌ رباني شامل عادل، يترقى بالإنسان للمثالية في علاقته بربه، ثم علاقته بالناس، ويسمو به إلى آفاقٍ عالية من الرُّقي في دينه ودنياه.

قال تعالى :﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨].

قال السعدي: أي: ثم شرَعنا لك شريعة كاملة، تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا الشرعي :﴿ فَاتَّبِعْهَا ﴾؛ فإن في اتباعها السعادةَ الأبدية، والصلاح والفلاح، ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا

يَعْلَمُونَ ﴾؛ أي: الذين تكون أهويتُهم غيرَ تابعة للعلم، ولا ماشيةً خلفه، وهم كلُّ مَن خالف شريعةَ الرسول صلى الله عليه وسلم هواه وإرادتُه؛ فإنه من أهواءِ الذين لا يعلَمون؛ [٩٩]اهـــ.

والشريعة هي الهُويَّة الربانية للمسلمين، ومصدرُ قوتِهم ووحدتِهم وطهارتِهم، وقد جعَلها الله تعالى في تجانُسٍ مع الفطرة الإلهية النقيَّة التي لم تلوِّثْها شهوات الدنيا المهلِكة، وهي خلاصةُ ميراثِ الأنبياء والمرسلين جميعًا من لدن آدَمَ إلى المبعوث رحمةً للعالمين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، ورسول الإسلام صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى :﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾]الشورى: ١٣[.

ومن ثَم فكل تقصير في تطبيق شرع الله بحجة عدمِ ملائمة بعض أحكام الشرع المطهَّر للعصر هو جهلٌ مطبق، وكفر بواح، ولا يمكن أن تستقيمَ حياة الأمة الإسلامية، وتَقوى شوكتها بين الأممِ بترك مصدرَيْ قوتِها: القرآن والسنة، واتباعِ مصادرَ تشريعية من صنع البشر وأهوائهم، تتغيَّر وتتبدَّل في كل عصر ومصر؛ لأنها ستكون يومئذ أمةً عمياءَ عرجاء مطموسة البصر والبصيرة، وقد حذر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أمتَه من هذا الاتباع الأعمى، وثبَت ذلك في حديثِ أبي سعيد الخدريِّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لَتتبعُنَّ سَنَنَ الذين من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخَلوا في جُحر ضبٍّ لاتبعتموهم))، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال:))فمَنْ؟)).[١٠٠]

وهو ما يؤكده قوله تعالى :﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾]الشورى: ٢١[.

قال السعدي رحمه الله: "يخبِرُ تعالى أن المشركين اتخذوا شركاءَ يوالونهم، ويشتركون هم وإياهم في الكفرِ وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر، ﴿ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ من الشِّرك والبِدَع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرَّم الله، ونحو ذلك مما اقتضَتْه أهواؤُهم.

[٩٩] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة)١/ ٢١٩(.

[١٠٠] - أخرجه مسلم برقم/ ٤٨٢٢ – باب اتباع سنَن اليهود والنصارى.

مع أن الدِّينَ لا يكون إلا ما شرَعه الله تعالى، ليَدينَ به العباد، ويتقرَّبوا به إليه؛ فالأصل: الحَجْرُ على كل أحد أن يشرَعَ شيئًا ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفَسَقة المشتركين هم وآباؤهم على الكفر؟"؛ [١٠١]اهـــ.

الركيزة الثانية: تعظيم المسؤولية الخاصة والعامة وعدم التفريط فيها:

والمقصود بالمسؤولية الخاصة هي مسؤولية وواجبات كلِّ فرد في المجتمع، مؤهل شرعًا وقانونًا لتحمُّلِ عواقبِ مسؤولياتِه وأفعاله، أما المسؤوليةُ العامة فهي مسؤولية الدولة والقائمين عليها من أهل الحَلِّ والعقد، ومَن ينوب عنهم أيًّا كان موقعُه ومركزه.

ومن صور المسؤولية الخاصة على سبيل المثال لا الحصر :**مسؤولية الأسرة:**

والأسرة هي اللَّبِنَة الأولى لتأسيس المجتمعات وتنشئةِ أفرادها وَفْقًا لتعاليم الشرع المطهر، وبالتالي فهي مسؤولة عن تخريجِ أجيال تفخرُ بهم الأمةُ بين الأمم، ويشارك أفرادُها الأمةَ في نهضتها من كبوتها، وجعل الإسلام ذلك فريضة في الكتاب والسنَّة.

قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾]التحريم: ٦[.

قال العلاَّمة السعدي – رحمه الله تعالى – في تفسير هذه الآية: "أي: يا مَن منَّ الله عليهم بالإيمان، قومُوا بلوازمه وشروطه؛ فـــ :﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقايةُ الأنفس بإلزامها أمرَ الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتنابًا، والتوبة عمَّا يُسخط اللهَ، ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمرِ الله، فلا يسلَمُ العبدُ إلاَّ إذا قام بما أمَرَ

[١٠١] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة)١ /٧٥٧(.

اللهُ به في نفسه، وفيما يدخُلُ تحت ولايتِه من الزوجات والأولاد، وغيرهم ممن هو تحت ولايتِه وتصرفُّه[١٠٢]"؛ اهـــ.

ولا أغالي إن قلتُ :إن الأسرةَ هي العمود الفقري لأي مجتمع في تربية وتأهيل شبابه، لتحمل مسؤولياته في الحياة.

والأسرةُ المسلمة إن توفَّرت لها مقومات المعيشة الطيبة، قادرةٌ على زرع الوازع الديني في نفوس أبنائها، وتنشئتهم على الفضائل والأخلاق الحميدة والمُثُل العليا منذ طفولتهم، حتى يصيروا شبابًا أقوياءَ، لا تهزُّهم عواصفُ الفِتَن، ولا رياحُ التغيير، عن التمسُّك بحبِّ الدِّين والوطن.

وهذا من حسنات الإسلام وتعاليمه؛ ألم يقلِ النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:))ألا كلُّكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته؛ فالإمام الأعظم الذي على الناس راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤولٌ عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها وولده، وهي مسؤولةٌ عن رعيتِها، وعبد الرجل راعٍ على مالِ سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِه)).[١٠٣]

قال العلاَّمة ابن القيِّم رحمه الله: "فمَن أهمَل تعليم ولده ما ينفعُه، وترَكه سُدًى، فقد أساء إليه غايةَ الإساءة، وأكثرُ الأولاد إنما جاء فسادُهم من قِبَل الآباء، وإهمالهم لهم، وترْك تعليمهم فرائضَ الدين وسُننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسِهم ولَم ينفَعوا آباءَهم كِبارًا[١٠٤]"؛ اهـــ.

ومن صور المسؤولية العامة – على سبيل المثال لا الحصر :– **مسؤولية النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

---

١٠٢ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة)١/٨٧٤(.

١٠٣ - أخرجه البخاري برقم/٨٤٤ – باب الجمعة في القرى والمدن، ومسلم برقم/ ٣٤٠٨ – باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر.

١٠٤ - انظر: تحفة المودود بأحكام المولود (ص/٢٢٩) – تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط.

فالنصيحةُ لله ورسوله وأئمة المسلمين وعامَّتهم: مسؤوليةُ كل مسلم، مع الالتزام بشروطها وآدابها؛ وذلك بالحِكمة والموعظة الحسنة، ولا أُغالي إن قلتُ: إن الدِّين هو أساسُ حياة الإنسان، وسبب سعادته في الدنيا والآخرة، وبدونه يخبِطُ المرء في دنياه خبطَ عشواء، ويضِلُّ طريقه عن الحق المبين، ويتبع كل شيطان مريد.

قال تعالى :﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾]النحل: ١٢٥[.

وقال تعالى :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾]فصلت: ٣٣[.

قال السعدي رحمه الله في تفسيرها:

هذا استفهامٌ بمعنى النفي المتقرر؛ أي: لا أحَدَ أحسنُ قولاً؛ أي: كلامًا وطريقة وحالة ﴿ مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ بتعليم الجاهلين، ووَعْظ الغافلين والمُعرِضين، ومجادلة المُبطِلين؛ بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحثِّ عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقبيحه بكل طريق يوجب تَرْكه، خصوصًا من هذه: الدعوة إلى أصل دِين الإسلام، وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسَنُ، والنهي عما يضادُّه من الكفر والشِّرك، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[١٠٥]؛ اهـــ.

•وقد ثبَت في السنة الصحيحة من حديث تميم الداريِّ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:))الدِّين النصيحة((، قلنا: لِمن؟ قال:))لله ولكتابه ولرسوله ولأئمَّة المسلمين وعامَّتهم((.[١٠٦]

١٠٥ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة)٧٤٩/١(.

١٠٦ - أخرجه مسلم برقم/٨٢ – باب بيان أن الدِّين النصيحة.

•وثبت قوله صلى الله غليه وسلم وهو يخطُبُ الناسَ في حجة الوداع:))ليُبلغِ الشاهدُ الغائبَ؛ فإن الشاهدَ عسى أن يُبلِّغ مَن هو أوعى له منه))؛[١٠٧]، وقال أيضًا:))بلِّغوا عني ولو آيةً))؛.[١٠٨]

قلتُ: ولا يخفى أن الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر من النصيحة العامة، ويشهَدُ على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾]آل عمران: ١٠٤[.

•قال أبو جعفرٍ الطبري في تفسيرها ما نصه: يعني بذلك جلَّ ثناؤه :﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أُمَّةٌ ﴾، يقول: جماعة ﴿ يَدْعُونَ ﴾ الناس ﴿ إِلَى الْخَيْرِ ﴾، يعني إلى الإسلامِ وشرائعِه التي شرَعها الله لعباده، ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يقول: يأمرون الناسَ باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ودينِه الذي جاء به من عند الله، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ :يعني وينهَوْن عن الكفر بالله، والتكذيبِ بمحمد وبما جاء به مِن عند الله، بجهادهم بالأيدي والجوارح، حتى ينقادوا لكم بالطاعة.

وقوله :﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ يعني: المنجِحون عند الله، الباقون في جناتِه ونعيمه[١٠٩]؛ اهـــ.

•وكذلك يدل عليه قولُ رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم:))من رأى منكم منكَرًا، فليُغَيِّرْه بيده، فإن لَمْ يستطِعْ فبلسانِه، فإنْ لَمْ يستطِعْ فبقلبه، وذلك أضعَفُ الإيمانِ)).[١١٠]

قال النووي رحمه الله في شرح الحديث ما مختصره: وأما قوله صلى الله عليه وسلم: (فليُغيِّره) فهو أمرُ إيجاب بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتابُ والسنَّة وإجماع الأمة، وهو أيضًا من النصيحة التي هي الدِّين[١١١]؛ اهـــ.

---

١٠٧ - جزء من حديث أخرجه البخاري برقم/٦٥ – باب قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم:))رُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع.((

١٠٨ - جزء من حديث أخرجه البخاري برقم/ ٣٢٠٢ – باب ما ذُكر عن بني إسرائيل.

١٠٩ - جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر – الناشر: مؤسسة الرسالة)٧/ ٩١ / ٧٥٩٤(.

١١٠ - أخرجه مسلم برقم/٧٠ – باب بيان كون النهي عن المنكَر من الإيمان.

١١١ - انظر المنهاج في شرح مسلم للنووي.

وينبغي التنبيهُ هنا إلى أن تغييرَ المنكَر بالقلب واللسان للعلماء والدعاة وكل مسلم حسب قدرتِه واستطاعته، وفي حدودِ تعاليمِ الشرع المطهَّر، وهو مِن النصيحة لله تعالى، وأما التغييرُ باليد في المجتمع الإيماني فهو مسؤوليةُ السلطان ومَن ينوب عنه، وذلك بوَضْع القوانين المنظِّمة له، وآليته، والقائمين به بين الناس في المجتمع، وهو كذلك مسؤوليةُ كل مسلم في حدود ولايته، وممن يشمَلُهم برعايته ويتولى أمرَهم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:))ألا كلُّكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته)) كما بيناه في المسؤولة الخاصة آنفًا.

وينبغي أن يكونَ ذلك - تغيير المنكر بكل أنواعه - وَفْقًا للضوابط والقواعد التي بيَّنها أولو الألبابِ من العلماء والفقهاء، وحتى لا تتصادَمَ مع تعاليم الكتاب والسنَّة.

والمجتمع الذي يُهمِل أهله أو يحارب القائمين على أمر هذه الوسيلة والدعوة الربانية للإصلاح، ويضع العراقيل بالقوانين الوضعية والأعراف الجاهلية التي هي مِن وَضْع البشر، وفيها ما ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر - سوف يؤدِّي ذلك إلى فساده وإهلاكه بالآفات والمنكَرات المدمِّرة للقيَم والأخلاق المثالية، ولقد حذَّر النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم من هذا السبيل المظلم فقال:))مَثَل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثَل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا من الماء، مَرُّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرَقْنا في نصيبنا خرقًا و لم نؤذِ مَن فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلَكوا جميعًا، وإن أخَذوا على أيديهم نجَوْا ونجَوْا جميعًا)).[١١٢]

فكل هذه الأدلة وغيرها تدل على أن النصيحةَ - ومنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مسؤوليةٌ عامَّة للأمراء والعلماء، ولكلِّ مَن قدر عليها من المسلمين وتنطبِقُ عليه شروطُها، ويملِك أدواتها، ويفقَهُ ضوابطَها وحدودَها.

الركيزة الثالثة: التكافل والتعاون بين أفراده:

والمراد بالتكافل :[١١٣]أن يكفُلَ المسلم أخاه المسلم بما أعطاه الله من نِعَم؛ كالعلم، والمال، والقوة، والذكاء.. إلخ.

---

١١٢ - أخرجه البخاري برقم/ ٢٣١٣ - باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه.

١١٣ - والتكافل تفاعل من الكفالة، وهي الحِفظ والرعاية والضمان؛ انظر: لسان العرب ٥٨٨/١١.

والمقصود أن يعطف القويُّ على الضعيف، ويواسي الغني الفقير، ويعلِّم العالِم الجاهل، وما أشبهَ ذلك، فهذا التكافل وإن شئت قُلْ: وهذه الرِّعاية الاجتماعية قائمةٌ على منهج رباني؛ فقد شرَع الله تعالى في قرآنه وسنَّة رسوله أنواعًا كثيرةً من التكافل والتعاون المثمِر بين الأفراد والجماعات في المجتمعِ الواحد، من ذلك على سبيل المثال:

إيتاء الزكاة من الغني للفقير:

إخراج الزكاةِ من الغني للفقير؛ وذلك عند تمام النِّصاب، ومرور الحول: طهارةٌ لماله، وشُكر لنعَم الله عليه، وكذلك الصدقات على المساكينِ وأهل الحاجة والفَاقة تَزيدُ من الترابُطِ والتكافل والتماسُكِ بين أفراد المجتمع، ومن أدلة ذلك في نصوص الوحيين:

•قوله تعالى :﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾]التوبة: ١٠٣[.

•وقوله صلى الله عليه وسلم:))بُنِي الإسلامُ على خمس؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام)).[١١٤]

قال ابن العثيمين رحمه الله في شرح الحديث ما مختصره وبتصرف يسير:

والزكاة هي: التعبُّد لله تعالى في دفع مال مخصوص من أموال مخصوصة، هذا المال المخصوص مقدر: ربع العشر، نصف العشر، العشر.

ثم قال: والزكاة لها فوائدُ عظيمة، منها: تكميلُ إسلام العبد؛ لأنها أحدُ أركان الإسلام، وهي أفضلُ من الصَّدقة.

وذكَر رحمه الله من فوائدِ الزكاة والصدقة عمومًا ما مختصره:

•منها: أن فيها جَبرًا لقلوب الفقراء، ودفعًا لحاجتهم، وحماية من غضبهم؛ لأن الفقراء إذا لم يُعطَوْا من مال الأغنياء ربما يغضَبون ويتجرؤون، ويكرَهون الأغنياء، ويرون أنهم في وادٍ والأغنياء في وادٍ، والأمة

---

١١٤ - أخرجه البخاري برقم/٧ –((باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: –بُني الإسلام على خمس))، ومسلم برقم/٢١ – باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام.

الإسلامية أمَّة واحدة، يجب أن يعتقد كلُّ إنسان أنه لَبنة في سور قصرٍ مع إخوانه المسلمين؛ لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم:))المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشُدُّ بعضُه بعضًا)).[115]

•ومنها: أنها سببٌ في شرح الصدر؛ لأن الإنسان كلما بذَل شيئًا من ماله، شرح الله له صدره، وهذا شيء مجرَّب وواقع، لو يتصدق الإنسانُ بأدنى من واجب الزكاة لوجَد في صدره انشراحًا، وفي قلبه محبة للخير.

•ومنها: كفالة اليتيم، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:))أنا وكافلُ اليتيم في الجنَّةِ هكذا، وقال بإصبعيه السَّبَّابة والوسطى)).[116]

وفي هذا حثٌّ على كفالة اليتيم، وكفالةُ اليتيم هي القيامُ بما يُصلِحه في دِينه ودنياه، بما يصلحه في دينه من التربية والتوجيه والتعليم، وما أشبهَ ذلك، وما يصلحه في دنياه من الطعام والشراب والمسكن[117]...؛ اهـ.

إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وكف الأذى:

إطعامُ الطعام، وإفشاء السلام، وكف الأذى، وما أشبه هذا من أعمال البرِّ التي حثَّ عليها الشرعُ المطهَّر تَزيد من المحبَّةِ والمودَّةِ والتكافل بين الناس في المجتمع الإيماني المثالي، وفي السنَّةِ عن الصادقِ المعصوم أحاديثُ تدل على ذلك، منها:

حديث عبدالله بن عمرو قال: إن رجلاً سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال:))تطعِم الطَّعام، وتقرأ السلامَ على مَن عرَفْتَ ومَن لم تعرِفْ)).[118]

---

[115] - أخرجه مسلم برقم/ ٤٦٨٤ - باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.

[116] - أخرجه البخاري برقم/ ٥٥٤٦ - باب فضل من يعول يتيماً.

[117] - انظر شرح رياض الصالحين لابن العثيمين (٣١١/١) - باب ملاطفة اليتيم والبنات.

[118] - أخرجه البخاري برقم/١١ - باب إطعام الطعام من الإسلام، ومسلم برقم/٥٦ - باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

•وحديث أبي موسى قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الإسلام أفضلُ؟ قال:))مَن سلِم المسلمون من لسانِه ويدِه)).[119]

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح ما ذكرناه من أحاديث، وما يدور في معناها من أحاديث أخرى، ما مختصره:

وفي هذه الأحاديث جُمَل من العِلم، ففيها الحثُّ على إطعامِ الطعام، والجود، والاعتناء بنَفْع المسلمين، والكف عما يؤذيهم بقولٍ أو فعلٍ، بمباشرة أو سبب، والإمساك عن احتقارِهم، وفيها الحثُّ على تألُّف قلوب المسلمين، واجتماع كلمتهم، وتوادهم، واستجلاب ما يحصل ذلك.

قال القاضي رحمه الله: والأُلفة إحدى فرائض الدِّين، وأركان الشريعة، ونظام شَمْل الإسلام.

قال: وفيه بذل السلام مَن عرفتَ ولمن لم تعرف، وإخلاص العمل فيه لله تعالى، لا مصانعة ولا مَلَقًا، وفيه مع ذلك استعمال خُلُق التواضع، وإفشاء شعارِ هذه الأمة، والله تعالى أعلم[120]؛ اهـــ.

نصرة المظلوم وإعانته وإعادة الحقِّ إليه:

ذلك لأن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة، وهو في الدنيا ظلمةٌ للقلوب، يَزيد من الحقد والكراهية والعداوة؛ ولهذا حذَّر منه الله تعالى، ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم، تحذيرًا شديدًا، فقال تعالى :﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾]غافر: ٥٢[، وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم:))اتقوا الظلمَ؛ فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة)).[121]

•قال العلاَّمة ابن العثيمين رحمه الله: "اتقوا الظلم" بمعنى: احذروه، واتخذوا وقايةً منه، وابتعدوا عنه، والظلم: هو العدوانُ على الغير، وأعظم الظلم وأشدُّه الشِّركُ بالله تعالى؛ ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾]لقمان: ١٣[، ويشمل الظلم ظلم العباد، وهو نوعان: ظلم بترك الواجب لهم، وظلم العدوان عليهم؛ بأخذ أو انتهاك حرماتهم.

---

١١٩ - أخرجه البخاري برقم/١٠ – باب: أي الإسلام أفضل، ومسلم برقم/٥٧ – باب بيان تفاضلُ الإسلام وأي أموره أفضل.

١٢٠ - انظر المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي (١/١١٨/٥٦).

١٢١ - جزء من حديث أخرجه مسلم برقم/ ٤٦٧٥ – باب تحريم الظلم.

ثم قال:
ومن الظلم أيضًا اقتطاع شيء من الأرض؛ قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام:))مَن اقتطع شِبرًا من الأرض ظلمًا، طُوِّقه يومَ القيامة من سبع أرَضين)).

ومن الظلم الاعتداءُ على الناسِ في أعراضِهم بالغِيبة أو النميمة، أو ما أشبه ذلك؛ فإن الغِيبة ذِكرُك أخاك بما يكره في غيبته، فإن كان في حضرته، فهو سبٌّ وشتم، فإذا ظلم الناس بالغيبة بأن قال: فلان طويل، فلان سيِّئ الخُلُق، فلان فيه كذا، فهذه غِيبة وظُلم، يحاسَب عليها يوم القيامة.

وكذلك أيضًا إذا جحَد ما يجب عليه جحودًا، بأن كان لفلان عليه حقٌّ، فيقول: ليس له عليَّ حقٌّ، ويكتم؛ فإن هذا ظُلم؛ لأنه إذا كانت المماطلة ظُلمًا، فهذا أظلم، كمن جحد شيئًا واجبًا عليه، فإنه ظا لم.

وعلى كل حال، اتقوا الظلمَ بجميع أنواعه؛ فإن الظلمَ ظلماتٌ يوم القيامة، يكون على صاحبه - والعياذ بالله - ظلمات بحسَب الظُّلم الذي وقَع منه، الكبير ظلماتُه كبيرة، والكثير ظلماته كثيرة، كل شيء بحسَبه؛ قال تعالى :﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وفي هذا دليلٌ على أن الظلمَ من كبائر الذنوب؛ لأنه لا وعيدَ إلا على كبيرةٍ من كبائر الذنوب؛ فظُلم العباد وظُلم الخالق عز وجل ربِّ العباد كله من كبائر الذنوب[١٢٢]؛ اهـــ.

الركيزة الرابعة: حفظ الحقوق والحريات في إطار الشريعة الربانية:

حِفظ الحقوق والحريات من مقوِّمات ودعائمِ المجتمع المثالي في الإسلام، وهي كثيرة ومتنوعة، وتسمو بعلاقةِ الناس بخالقِهم من جهة، وعلاقتهم بأنفسهم من جهة أخرى، ومن الصعب حصرُها في هذه العجالة؛ لذا رأيت الاكتفاء باثنين من الحقوق والحُريات التي اهتمَّ بها الإسلام، وشرَع لها تعاليمَ سامية، ما زال وسيظل يشكِّك فيها المبطِلون والمنافقون من أحفاد أبي جهل في كل عصرٍ ومصر، ويثيرون حولهما الشُّبهات والشُّكوك، ويُكثِرون من ترديدِها في محاولات مستمرة مستميتة؛ لينالوا من الشريعة،

---

١٢٢ - انظر شرح رياض الصالحين لابن العثيمين (١/٥٨٥) - باب النهي عن البخل والشح.

ويقدَحوا في أحكامِها وسماحتها؛ لوصفِها بالجمودِ والتطرُّف وعدم ملائمتِها للعصر، ولكن هيهات هيهات.

قال تعالى :﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾]الرعد: ١٧[.

وهذان الحقان هما:

١–حق المرأة وتحررها في بناء المجتمع الإيماني المثالي.

٢ –حقوق أهل الكتاب في ديار الإسلامِ من منظور الشريعة.

وسوف نبيِّنهما وبشرح علمائنا الثقات؛ لأهميتهما في بناء الأمَّة على القِيَم والأخلاق المثالية، ولِنكبَحَ جماح فكر وسفسطة بعض المحسوبين على الإسلام، وهم مِن جلدتنا ويتكلَّمون بألسنتنا، من خطباء الفتنة وأمثالهم في العالم المترامي، من أعداء الله، الكارهين والحاسدين، والمشككين في دين الإسلام، وعظَمة رسالته، ووسَطية منهجه، من أنصار الحرية المزعومة التي لا يُعرَف لها حدٌّ، ولا يؤيدها وحي السماء، كرسالة الإسلام الذي يزيد عددُ معتنقيه ومَن يدخل فيه يومًا بعد يوم، ليموت مَن مات عن بيِّنة، ويهلِكَ مَن هلَك عن بيِّنة.

١–حق المرأة وتحررها في بناء المجتمع الإيماني المثالي:

الشبهات التي يُلصقها أعداءُ الله بالإسلام فيما يخص حق المرأة وحريتها: كثيرةٌ، منها قولهم: إن فرضَ الحجاب عليها تقييد لحريتها، وقولهم: إن تعدُّد الزوجات للرجل دون المرأة يُخالفُ المساواة، وقولهم: إن نظام الميراث الذي جعَل نصيبَ الرجل كنصيب امرأتينِ فيه ظلم لها.. إلخ.

ولسنا بصددِ الرد وكشف أباطيلهم في هذه الدراسة؛ لأن هدفَنا منها بيانُ أن الإسلام بمنهجيته ومثاليته ووسطيته رسالةُ الله للعالَمين، وفي كتب علمائنا – سلَفًا وخلَفًا – ما يكشف الغُمَّة، ويزيل الالتباس، ويرُدُّ شبهاتهم وكيدَهم في نحورهم.

لذا نكتفي هنا بالردِّ على الشبهة الأولى، وهي أن فرضَ الحجاب على المرأة يقيِّد حريتها، وببيانِ زيف هذه الدعوة، وبيان خطورتها على المجتمع المثالي الإيماني الذي نبيِّن مقوِّماتِه ودعائمَه في هذا المَبحث من الدراسة.

وبادئ ذي بَدءٍ نقول:

مما لا شك فيه عند العقلاء من الناس أن المرأة نصف المجتمع، بل هي عندي العمود الفقري للمجتمع كله، وهي القضية الأساسية للشعوب المتحضرة؛ فهي قادرةٌ على النهوض بالمجتمع؛ بإخلاصها لله، والتزامها بشرعه، وهذا لا ريبَ يؤدِّي إلى مجتمع قائم على العِفَّة والفضيلة.

كما أنها قادرةٌ على أن تكونَ بلاءً صاعقًا، تُشيع الفاحشة والإباحية والمجون، بتبرُّجِها وخروجِها عن شرع الله، وهذا لا ريبَ يؤدِّي إلى مجتمع فاسد، منحلِّ القِيَم والأخلاق.

لماذا؟

لأنها من أخطر الفِتَن في دنيا الناس، وأولُ مراتبِ الشهوات المهلكة التي ذكَرها الله تعالى في القرآن الحكيم؛ قال تعالى :﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

قال ابن كثير في شرحه للآية – بتصرف يسير – ما مختصره:

يخبر تعالى عما زُيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذِّ من النِّساء والبنين، فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنةَ بهن أشدُّ، كما ثبَت في الصحيح أنه عليه السلام قال:))ما تركْتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجَالِ من النِّساء)).[١٢٣]

فأما إذا كان القصدُ بهن الإعفافَ وكثرةَ الأولاد، فهذا مطلوبٌ مرغوبٌ فيه، مندوب إليه، كما ورَدت الأحاديثُ بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، "وإنَّ خيرَ هذه الأمَّة كان أكثرَها نساءً[١٢٤]"، وقوله عليه السلام:))الدُّنيَا مَتَاع، وخيرُ متاعها المرأةُ الصَّالحة[١٢٦]))[١٢٥]؛ اهـــ.

---

١٢٣ - أخرجه البخاري برقم/ ٤٧٠٦ – باب: ما يتقى من شؤم المرأة.

١٢٤ - أخرجه البخاري برقم/ ٤٦٨١ – باب كثرة النساء.

١٢٥ - أخرجه مسلم برقم/ ٢٦٦٨ – باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة.

١٢٦ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع (٢/ ١٩)

قلت: فإن كانت المرأةُ عند العقلاء أخطرَ الفتن، فلا ريب أن تبرجَها وسفورَها واختلاطها بالرجال ومزاحمتها لهم – كما هو مشاهَد اليوم في المجتمعات المتحررة إسلامية أو غير إسلامية، بحجة المساواة والحرية التي لا يحدها حدٌّ – مغالطة فجّة؛ فإن المجتمعَ الفاضل لا ينشأ بفتح أبواب الفساد، وتسهيل مداخله، بل بغَلْق أبوابه، وسدِّ وتخفيف منابعه، والوقايةُ خيرٌ من العلاج كما يقولون.

فلماذا إذًا الهجومُ على شريعة الإسلام التي تدعو المرأةَ للاحتشام بالحجاب؛ لحفظ كرامتها وعفافها وحيائها من النظرات واللفظات من الرِّجال أصحاب القلوب المريضة، والنفوس الضعيفة، والألسنة البذيئة، ممن لا يردَعُهم دِين ولا ضمير.

وإن قالوا: نعم، واجبٌ على المرأة أن تخفيَ مواضع الفتنة منها أمام الرجال، منعًا للفجور، فنحن نسأل العقلاءَ والحكماء منهم :وهل فرَض الله تعالى الحجابَ على المرأة إلا لذلك؟!

قال تعالى :﴿ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

فالحجابُ بشروطه الشرعية فقط أمام الناس الأجانب التي يحرُمُ عليهم رؤيتها متبرجة وسافرة، ولكن في بيتها ومع محارمها، فهي – كغيرها من النساء – حرَّة فيما ترتديه من ملابسَ، مع الالتزامِ بآداب الإسلام وسلوكياته، فما ترتديه لزوجها وفي بيت الزوجية يختلفُ عما ترتديه أمام النساءِ عمومًا، أو محارمها؛ كالأب والأخ والعمِّ.. إلخ.

وهي ليست ملزَمةً بالحجاب والاحتشام أمامهم كغيرهم من الناس؛ لأنه يباحُ لها السفورُ أمامهم بنص الآية المذكورة آنفًا.

ولا يغيب عن أولي الألباب جرائم الاغتصاب والتحرُّش التي تفُوق الوصفَ، كما هو مشاهَد اليوم في المجتمعات المتحرِّرة، التي يختلط فيها نساؤها برجالها، بلا حسيبٍ أو رقيب، ولسنا في حاجةٍ للأرقام؛

فهي معلومةٌ للقاصي والداني، وتتبدَّل وتتغيَّر دومًا، وفي ارتفاع مطَّرد، مما يؤدي بهذه المجتمعات إلى الهاوية والانحطاط الخُلُقي.

وإن كانت الحُجَّة حرية المرأة، فإن الإسلامَ قد حرَّر المرأةَ من جبروت الرجل وتسلُّطه في الجاهلية، وحوَّلَها من سلعة تُباع وتشترى أو أن تُدفَن في التراب وهي طفلة لا حول لها ولا قوة – إلى امرأةٍ مكرمة معززة؛ أُمًّا وزوجةً، وأختًا وابنة، والنصوص الشرعية التي تدل على ذلك مشهورةٌ وكثيرة.

وجعل الإسلامُ المرأة كالرجل في الثواب والعقاب، وهذا لا يجادل فيه إلا مكابر حاقدٌ على الإسلام.

قال تعالى :﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾]آل عمران: ١٩٥[.

قال السعدي رحمه الله: أي أجاب اللهُ دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: إني لا أُضيع عمَلَ عاملٍ منكم، مِن ذَكَر وأنثى؛ فالجميع سيلقَون ثوابَ أعمالهم كاملاً موفَّرًا، ﴿ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾؛ أي: كلُّكم على حدٍّ سواءٍ في الثواب والعقاب[١٢٧]؛ اهـــ.

ولا يخفى أن الحريةَ التي يدعونها للمرأة في التبرُّج والسفور والاختلاط بلا رادعٍ من دين أو قانون هي في الحقيقة والواقع المشاهَد في المجتمعات المتحرِّرة مِن كل قيد لكل ذي عين: حريةٌ لاحتقارها، وإهانتها، وذهاب عَفافها وحيائها.

ولسنا بهذا الطرح بصدد الدفاع عن شريعتنا وإسلامنا؛ فهو قائم بذاته، وإنما كلامنا في بيان أن الحجاب لا يُعيق حرية المرأة، بل يحفظها ويكرمها من جهة، ومن جهة أخرى ثمار ذلك على سلامة وصلاح المجتمع، وفلاح أفراده، من الوقوع في الفتن، وأخطرها تبرُّج المرأة، واختلاطها بالرجال، بلا رادعٍ من دين أو قانون، لا يخفى على ذي العقول والألباب، هذا لمن عقَل ووعى، أما مَن تكبَّر وأنكر وجادل، فكفى بقولِ الله تعالى زجرًا له ولأمثاله :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾]الحج: ٤٦[.

---

[١٢٧] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١٦٢/١)

وكفى وشفى ليثلج صدر أهل الإيمان، وتطمئن قلوبهم للحق، والثبات عليه، عندما ينعق هؤلاء بما لا يعلمون، بقول سيد الخَلْق المبعوث رحمة للعالمين:))ليبلُغَنَّ هذا الدِّين ما بلَغ الليل والنهار، حتى لا يدَعَ بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله هذا الدِّين، بعزِّ عزيز، أو بذلِّ ذليل، عزًّا يُعِز الله به الإسلامَ، وذلاًّ يُذِل اللهُ به الكفر((.[128]

٢-حقوق أهل الكتاب في ديار الإسلام من منظور الشريعة:

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وهم أهل الذمة، والذِّمة في اللغة: العهد والأمان، وهم مِن أصحاب الديانات السماوية الأخرى، والإسلام دين سماوي كذلك، نزَل به الرُّوح الأمين جبريل عليه السلام، على قلب نبيِّ الإسلام، وخاتَمِ الأنبياء صلى الله عليه وسلم، والدليل على ذلك - والذي لا يستطيع أن ينكرَه مكابرٌ أو مشكك فيه - هو أنه لو كان من عند غير الله تعالى، لكان من المنطقِ والعقلِ أن يأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أتباعَه بالكفرِ بالكتب السماوية السابقة، وإنكارِ نبوة مَن سبقه؛ ليكون منفردًا بذاته ودينه، ولكن - كما لا يخفى - بيَّنت كثيرٌ من آيات القرآن الذي أوحاه الله تعالى إليه، والسنَّة الصحيحة: أن الإسلامَ هو الدِّينُ الوحيد الذي يقرُّ بنبوة ورسالة مَن سبق من الأنبياء والرسل، ويدعو مُعتنقيه للإيمانِ بهم، وتوقيرهم، وتنزيههم، ويحرِّم عليهم سبَّهم، وهذا من أعظم وأسمى حقوق أهل الكتاب في الإسلام، ولا ينكرها إلا جاحدٌ أعمى البصر والبصيرة، ومن أدلة ذلك:

•قوله تعالى :﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾]البقرة: ٢٨٥[.

ثم بيّن القرآن مَن هم هؤلاء الرسل ممَّن شرَّفهم الله تعالى واصطفاهم بالرسالة والنبوة، فقال تعالى : ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾]آل عمران: ٨٤، ٨٥[.

ومن السنَّة التي تدعو إلى توقير أنبياء الله ورسله ما يلي:

•عن أبي هريرة قال: "استَبَّ رجلان: رجل من اليهود، ورجل من المسلمين، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على العالَمين، وقال اليهودي: والذي اصطفى موسى عليه السَّلام

---

١٢٨ - انظر "السلسلة الصحيحة" للألباني(١/ ٧)

على العالَمين، قال: فرفَع المسلمُ يدَه عند ذلك، فلطم وجهَ اليهودي، فذهب اليهوديُّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما كان من أمره وأمرِ المسلم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:))لا تخيِّروني على موسى؛ فإنَّ الناس يُصعَقون، فأكون أولَ مَن يُفيق، فإذا موسى باطشٌ بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صُعِقَ فأفاق قبلي، أم كان ممن استثنى الله)).[١٢٩]"

•وعن عبدالله – رضي الله عنه – قال: "لما كان يوم حنين آثَر النبيُّ صلى الله عليه وسلم ناسًا؛ أعطى الأقرعَ مائةً من الإبل، وأعطى عُيَينة مثل ذلك، وأعطى ناسًا، فقال رجل: ما أُريدَ بهذه القسمة وَجْهُ الله، فقلت: لأخبِرَن النبي صلى الله عليه وسلم قال:))رحم اللهُ موسى، قد أوذي بأكثرَ من هذا فصبَر)).[١٣٠]"

•وعن عبدالله بن جعفر قال: "كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول:))ما ينبغي لنبيٍّ أن يقولَ: إنِّي خيرٌ من يونسَ بنِ متَّى))"؛ صحيح، انظر: صحيح الجامع للألباني، ح/ ٥٨٢١.

•وعن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:))أنا أولى الناس بعيسى، الأنبياءُ أبناءُ عَلاَّت، وليس بيني وبين عيسى نبيٌّ)).[١٣١]

وبعد كلِّ هذه الأدلةِ عن حرص رسولِ الإسلام على توقير إخوانه من الرسل والأنبياء قبله، فلا عجب إذًا أن اختارَه الله – تعالى – خليلاً، كما اتَّخذ إبراهيمَ خليلاً، وختم به الرسالةَ والنبوة، وجعلَه الرحمةَ المهداة للخَلْق أجمعين.

ومِن ثَم، وبناءً على ما سبق ذِكره آنفًا، نقول:

إن من أعظم حقوق أهل الكتاب، التي يحفظُها الإسلام، ومن ثوابته: تعظيم أنبيائهم، والإيمان بكُتبهم المنزَّلة من عند الله، إلا ما حُرِّف منها، ويخالف قرآننا المعجِزَ المحفوظ من الله تعالى.

•ومِن حقوقهم في الإسلام: الإقرارُ بحقِّهم في الحياةِ الإنسانية الكريمة، وعدم الاعتداء عليهم وظلمهم دون جَريرة أو ذَنب.

---

[١٢٩] - أخرجه مسلم برقم / ٤٣٧٧ – باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم.

[١٣٠] - أخرجه البخاري برقم/ ٢٩١٧ – باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلَّفة قلوبهم.

[١٣١] - أخرجه مسلم برقم/ ٤٣٦١ – باب فضائل عيسى عليه السلام

والأدلة في ذلك كثيرة، منها:

•حديث:))مَن ظلَم معاهَدًا، أو انتقصه حقًّا، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخَذ منه شيئًا بغير طِيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة)).[١٣٢]

•وحديث :))مَن قتَل نَفْسًا معاهدًا، لَم يَرَحْ رائحةَ الجنة، وإن ريحَها لَيوجَدُ من مسيرة أربعين عامًا)).[١٣٣]

•ومن حقوقِهم في المجتمع المسلم: حمايتُهم من الاعتداء الداخلي والخارجي، واجب على المسلمين، وأوجب الجزية في حقهم؛ لهذا قال تعالى :﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾]التوبة: ٢٩].

قال ابنُ العُثَيمين: الجزِية هي: مالٌ يضعه ولاةُ الأمر كلَّ عام على كل كافر تحت ذمَّة المسلمين، عوضًا عن حمايتِه وإقامته بدار الإسلام.

مثاله :لو فتَح المسلمون بلدًا للكفار، واستولَوْا عليها، فإنه يقال لِمن فيها من الكفار: لكم البقاء مع دَفْعِ الجزِية.

والدليل على الجزية: ما جاء في حديثِ بُرَيدة رضي الله عنه:))فإن هم أبَوا، فاسأَلْهم الجزيةَ)).[١٣٤]

قلت: والصحيح الذي عليه علماؤُنا أن الجزيةَ تؤخَذُ من كل كافر، وليس مِن أهل الذِّمة فقط، وهي على مَن بلغ الحُلُم، وكان قادرًا على القتال، أما المعذور لعاهةٍ تمنَعُه من القتال، أو لكِبَر السن، أو النساء والصبيان، ومَن في حُكمهم - فلا تُؤخَذ منهم.

---

١٣٢ - انظر حديث رقم: ٢٦٥٥ في صحيح الجامع.

١٣٣ - أخرجه البخاري برقم/ ٦٤٠٣ - باب إثم مَن قتل ذميًّا بغير جُرم.

١٣٤ - جزء من حديث لمسلم وغيره برقم/ ٣٢٦١ - باب تأمير الإمام الأمراءَ على البعوث، ووصيته إياهم.

والجزية كما لا يخفى :مقابل حماية المخالفين لنا في العقيدة من غير المسلمين، فإن أسلَموا فهم إخواننا في الحقوق والواجبات، وليس فيها إذلال لهم؛ فهي ليست حكرًا للمسلمين وغنائمَ لهم، بل تصب في مصلحة المجتمع كله، كما يفعلُ المسلمون الذين يُخرجون زكاة أموالهم، وزكاة الفطر، وكفارات النذور والأيمان والقتل الخطأ، وفدية الصيام وكفارته، والظِّهار، وما أشبه هذا، وكل هذه مغارم تُصرَف لعلاج آفات الفقر في المجتمع، وحاجات أفراده الأساسية، وهذا هو العدلُ الذي يتفقُ مع رسالة ومفهوم الإسلام.

ومعلوم أن الجزيةَ لا وجود لها اليوم؛ لضَعْف المجتمعات المسلمة التي تحكُمُ بغير ما أنزَل الله، أو تحكُمُ ولكنها مجتمعاتٌ ضعيفة يفتقد أفرادُها – على المستوى الفردي والجماعي – للصدق في القول والفعل والإيمان الحق، وإن عادُوا لمصدرَيْ قوتهم؛ كتاب الله وسنَّة رسوله صلى الله عليه وسلم، وطبَّقوا تعاليمَ الإسلام الصحيح بلا إفراط أو تفريط على أنفسهم – فقد وعَدهم وبشَّرهم اللهُ تعالى بقوله :﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾]النور: ٥٥].

•ومِن الحقوق العظيمة التي أباحها الإسلامُ لهم في المجتمع المسلم: حرية ممارسة عقيدهم، وإقامة شعائرِهم في أماكن عبادهم، وعدم إكراههم على دخولِ الإسلام، مع الالتزامِ بأحكامه، فإذا أبى التزامَ أحكامِ الإسلام انتقض عهده.

وينبغي قبل بيان مقصودنا بحرية العقيدة أن نبيِّن معنى العقيدة، ونبدأ بحول الله وقوته ونقول:

إن العقيدةَ لغةً: من العَقْد والتوثيقِ والإحكامِ والربط بقوَّة، وهي اصطلاحًا: الإيمانُ الجازم الذي لا يتطرَّقُ إليه شكٌّ أو ريبٌ لدى معتَقِده.

ومِن هذا المعنى الجَلي نستطيع أن نقول: إن العقيدةَ في الإسلام تعني: الايمانَ بالله تعالى بلا شك أو تردد، وتوحيده في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورُسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وحريةُ العقيدة للكتابيِّ من اليهود والنصارى ومَن جرى مجراهم تختلفُ عن حرية المسلم؛ فليس للمسلم الموحِّد أن ينكر ألوهية الله، ويكفرَ به، وينكر وجوده، ويقال: هذا حقه، وله الحريةُ في الإيمان والكفر؛ فهذا لا حريةَ له، بل يطبَّق عليه حدُّ الرِّدة؛ لأن الإسلامَ يعني الاستسلام والانقياد لحُكم الشرع؛ فعقوبة المسلم المرتدِّ: القتلُ؛ لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم:))مَن بدَّل دِينَه فاقتُلوه)).[١٣٥]

وقتُله ذاك عقاب له إن لم يرجع لدينه ويتُبْ إلى الله؛ ليستقيم أمرُ المجتمع كله، وحتى لا يكون اعتناقُ الإسلام ثم الكفر به طعنًا فيه؛ كما قال تعالى :﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾]آل عمران: ٧٢].

قال ابن كثير رحمه الله :هذه مَكيدةٌ أرادوها لِيَلبِسُوا على الضعفاء مِن الناس أمْرَ دِينهم، وهو أنهم اشْتَوروا بينهم أن يُظهِروا الإيمان أول النهار، ويُصلُّوا مع المسلمين صلاةَ الصبح، فإذا جاء آخرُ النهار ارتدُّوا إلى دِينهم؛ ليقول الجَهلةُ من الناس: إنما رَدَّهم إلى دِينهم اطِّلاعهُم على نقيصةٍ وعيبٍ في دين المسلمين؛ ولهذا قالوا :﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾]آل عمران: ٧٢][١٣٦]؛ اهـــ.

فقتلُ المسلِمِ المرتدِّ عن دِينه، ليس عقوبة على حرية الفكر والاعتقاد، بل هو عقوبةٌ على استهزائه بالدين، ومحاولة الطعن فيه بدخوله وخروجه منه، وما في ذلك مِن خطرٍ على الأمة؛ فتماسُكُ المجتمع وتعظيم الدِّين أمرٌ لا يجوزُ فيه رحمة أو تقصير، فلزِم أن تكون العقوبةُ الصارمة على قدرِ الذَّنب الفادح.

يقول العلاَّمة ابنُ باز رحمه الله:

وليس لأحد أن يشركَ بالله، وليس له أن يزني، وليس له أن يسرق، وليس له أن يقتل نفسًا بغير حق، وليس له أن يشرَبَ الخمر، وليس له أن يدَعَ الصلاة، وليس له أن يدع الزكاة وعنده مال الزكاة، وليس له أن يدَعَ الصيام وهو قادرٌ على صيام رمضان إلا في السفر والمرض، وليس له أن يتركَ الحج وهو قادرٌ على أن يحجَّ مرةً في العمر، إلى غير ذلك...

فلا حريةَ في الإسلام في ذلك، بل يجب أن يلتزمَ الإنسانُ العقيدة الصحيحة، ويدَعَ ما حرَّم الله، نعم، له حريةٌ في الأمور المباحة التي أباحها الله له، له حرية في الأمورِ المستحبَّة التي لا تجب، فلو شاء تَرْكها

---

[١٣٥] - أخرجه البخاري برقم/ ٢٧٩٤ – باب: لا يعذب بعذاب الله.

[١٣٦] - تفسير القرآن العظيم لابن كثير – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع(٢/ ٥٩)

فلا بأس، والمباح إن شاء فعَله الإنسان، وإن شاء تركه، أما ما أوجب الله عليه فيلزمه فِعله، وما حرمه الله عليه فيلزمه تَرْكه، وليس له أن يعتنقَ الشيوعية أو النصرانية أو اليهودية أو الوثنية أو المجوسية، ليس له ذلك، بل متى اعتنق اليهوديةَ أو النصرانية أو المجوسية أو الشيوعية، صار كافرًا، حلالَ الدمِ والمال، ويجب أن يُستتابَ، يستتيبُه وليُّ الأمر المسلمُ الذي هو في بلده، فإن تاب ورجَع إلى الحقِّ، وإلا قتله؛ لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:))مَنْ بدَّل دِينَه فاقتُلُوه))؛ رواه البخاريُّ في الصحيح.

فمن بدَّل دِينه دِينَ الإسلام بالكفر يجب أن يُقتَل إذا لم يتُبْ، فبهذا يعلم أنه ليس للمسلم حرية أن يترك الحق، وأن يأخذ بالباطل أبدًا، بل يلزمه الاستقامةُ على الحق، ويلزمه تركُ الباطل، وعليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصح لله، ويدعو إلى الله عز وجل، وأن يحذَرَ ما حرم الله عليه، وأن يدعو الناسَ إلى ترك ما حرَّم الله عليهم، كل هذا أمر مفترض حسب الطاقة[١٣٧]"؛ اهـــ.

قلت :ومن ثَم فلا حريةَ في العقيدة للمسلم، وإنما هي لأهل الكتاب، ومَن جرى مجراهم في دار الإسلام، وينبغي أن تكون في إطار الشريعة الخاتمة، كما بيَّنَّا، وليست منفصلة عنها؛ أي: ليس من حقِّ الكافر في دار من ديار الإسلام أن يجاهرَ بكفره علانية ويقول: أنا حر! ثم يمارس كفره وفجوره في المجتمع المسلم، سواء بالقول أو الفعل أو الكتابة والنشر، أو ما أشبه ذلك من الوسائل، دون عقاب على ما يدعو إليه من كفر وزندقة؛ فهذا ليس من حرية الاعتقاد في الإسلام، الذي يدعو إلى التوحيد، بل المقصود أنه لا يُكرَه على الإيمان إلا برغبته، فإن أبى فهو وشأنه، لا يُكره على دخول الإسلام إلا أن يقتنع به، وله أن يمارسَ شعائره الكفرية في حدود ما تبيحه الشريعة أمنًا على نفسه وماله وأهله وأماكن تعبُّده، ما دام لا يخرُجُ عن الحدود الشرعية التي تطبَّق على الجميع؛ لأن مبدأ الثواب والعقاب لا يفرِّق بين مسلم وكتابي، وكل منهما معاقَب حسب ما شرعه الله تعالى، وبيَّنه رسوله صلى الله عليه وسلم، إن خرَج عن إطار الشرع؛ فالحرية ليست مطلَقة، حتى لا يُفسِد كلُّ كافر عقيدةَ ضِعاف الإيمان في الأمة ممن يؤمِن بلسانِه ويكفُرُ بقلبه.

فالمقصود بحرية العقيدة للكتابي وما يجري مجراه يبيِّنه قوله تعالى :﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾]البقرة: ٢٥٦[.

---

١٣٧ - من فتاوى: نور على الدرب (٥٥٨) – للشيخ: –عبدالعزيز بن باز.

قال السعدي في بيانها ما مختصره: يخبر تعالى أنه لا إكراهَ في الدِّين؛ لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراهَ لا يكونُ إلا على أمرٍ خفيَّة أعلامُه، غامضة آثارُه، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدِّين القويمُ والصراط المستقيم، فقد تبيَّنتْ أعلامُه للعقول، وظهرت طُرقه، وتبيَّن أمره، وعُرِف الرشد من الغي، فالموفَّق إذا نظر أدنى نظر إليه آثَره واختاره، وأما مَن كان سيِّئَ القصد، فاسدَ الإرادة، خبيث النفس، يرى الحقَّ فيختارُ عليه الباطل، ويُبصر الحَسَن فيميل إلى القبيح - فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدِّين؛ لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمُكرَه ليس إيمانه صحيحًا، ولا تدل الآيةُ الكريمة على تركِ قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقةَ الدِّين من حيث هو موجبٌ لقَبوله لكل منصف قصدُه اتباعُ الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرَّض له، وإنما يؤخذ فرضُ القتالِ من نصوص أُخَرَ[١٣٨]؛ اهـ.

وهناك نصوص أخرى كثيرة تدل على حرية المعتقد للكتابي وغيره من غير المسلمين دون إكراهٍ، من ذلك:

•قوله تعالى :﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾]الكهف: ٢٩].

•وقوله تعالى :﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾]يونس: ٩٩].

بل جعَل الله تعالى المَدخَل لدعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالجدال الحسَن الذي يردُّ الحُجَّة بالحجة، ويبيِّن الحق من الباطل، والإيمان من الكفر، وليس الجدال لمجرد الجدال، وإثبات الرأي لهوى ضالٍّ، أو نصر زائف وخادع.

فقال تعالى :﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾]النحل: ١٢٥].

وإن لَم يرتقِ الجدال لبيان الحق - وهو واضحٌ جليٌّ - فليس للمسلمين في الشريعة أن يُكرِهوهم على الإيمانِ، بل الواجب عليهم دعوتُهم فقط.

---

١٣٨ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبدالرحمن بن ناصر السعدي - الناشر: مؤسسة الرسالة (١/١١٠).

قال تعالى :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال ابن كثير رحمه الله: هذا الخطاب يعُمُّ أهلَ الكتاب من اليهود والنصارى، ومَن جرى مجراهم :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ ﴾ :والكلمةُ تُطلَق على الجملة المفيدة؛ كما قال ها هنا، ثم وصَفها بقوله :﴿ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾؛ أي: عَدْلٍ ونَصَف، نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرَّها بقوله :﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ لا وَثَنًا، ولا صنَمًا، ولا صليبًا ولا طاغوتًا، ولا نارًا، ولا شيئًا، بل نُفرِدُ العبادةَ لله وحده لا شريك له.

وهذه دعوةُ جميع الرسل؛ قال الله تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

ثم قال :﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وقال ابنُ جُرَيجٍ: يعني: يُطيع بعضُنا بعضًا في معصية الله، وقال عِكرمةُ: يعني: يسجُدُ بعضُنا لبعض.

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾؛ أي: فإن تولَّوا عن هذا النَّصَف وهذه الدعوة، فأشهِدوهم أنتم على استمرارِكم على الإسلام الذي شرَعه الله لكم[١٣٩]؛ اهـــ.

قلت: فإن لم يستجيبوا للحق فينبغي تَرْكهم، وعدم التعرُّض لهم، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى :﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦].

هذا هو مفهوم حرية العقيدة من منظور الإسلامِ بالنسبة لأهل الذِّمَّة ومَن جرى مجراهم.

وبعد:

---

١٣٩ - تفسير القرآن العظيم لابن كثير – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع (٢ / ٥٥).

فلقد أثبتنا في هذا المبحث، وبالأدلةِ الشرعية من نصوص الوحيين، أن شريعةَ الإسلام التي جاء بها نبيُّ الإسلامِ صلى الله عليه وسلم من عند ربِّه، والتي أشعَّتْ بنورها قرونٌ طويلة بكمالها وبهائها ومناسبتها للفطرة الإنسانية، رغم التعنُّت البشري في تطبيقها؛ جهلاً وعنادًا بسموِّها، أو كفرًا بها والعياذ بالله، هي السمو والرقي بعينه، والأمل الباقي والوحيد للارتقاءِ بالبشرية، وبناءِ دعائمِ ومقوماتِ المجتمع المثالي الإيماني الذي تهفو إليه أفئدتُهم، وبوحيٍ من السماء لا يتغيَّر ولا يتبدَّل، والله المستعان وعليه التُّكلان.

المبحث الرابع
الإسلام وتكريمه للعلم والعلماء

إن حاجة البشرية للعلم والعلماء للتقدم والرقي والتكيُّف في هذه الدار التي خلقها الله مستقرًّا ومقامًا لآدم وحواء – عليهما السلام – وذرِّيتهما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها – لا تحتاج لبيان أو إقناع؛ لماذا؟.

لأن العلوم والمعارف الشرعية والدنيوية هي المعيارُ الذي تُقاس به قوة وصلابة المجتمعات روحيًّا ودنيويًّا، وتبين بجلاء مدى كبريائها وعزِّها وهُويَّتها، والجهل بهذه العلوم أو تجاهلها دليلٌ على انحطاط هذه المجتمعات وهمجيَّتها وجاهليتها.

ولا يخفى على مَن له أدنى بصيرة بالتاريخ البشري الفترة الحالكة في تاريخ قارّة أوروبا قبل عصرِ النهضة، فقد كانت تتخبَّط في ظلمات الجهل بسبب هَيْمنة رجال الدين والكنيسة على مختلف شؤون الحياة، وحاربوا العلماء وحكموا على بعضهم بالقتل والحبس، فتفشَّتِ الخرافات والأساطير بين العامَّة والخاصة، وانتشرت الحروب لأسباب مختلفةٍ، لسنا في صدد رصدها في هذا المبحث.

هذا، في الوقتِ الذي كان فيه المسلمون والمجتمعاتُ المسلمةُ تتطوَّر وتتقدَّم على شعوب الأرض بتعاليمَ ساميةٍ تجمع بين الدين والدنيا، ويمضون قُدُمًا بخطواتٍ ثابتة حثيثة واثقة على أرضية صلبة وتشريع إلهي يرفع من قدر العلم وأهله، في إقامة حضارة شامخة عملاقة، أضاءت ظلماتِ الجهل في ربوع العالَمين، وخرج من رحِمِها نوابغ وعباقرة في مختلف العلوم والمعارف في الفقه والحديث واللغة والتفسير وغيرها من العلوم الشرعية، فضلاً عن العلوم الدنيوية النافعة التي لا بد منها؛ كالجغرافيا، والتاريخ، والفلسفة، والطب، والهندسة، والفيزياء، والكيمياء، وما أشبه ذلك، ومقامهم وفضلهم في السبق وبصماتهم في المجال العلمي والإنساني معتَرَفٌ به، ومشهود بين خلق الله تعالى في عصرنا هذا، وكانوا المصباح الذي أضاء الطريق لكل عالِم دينٍ أو دنيا، ورفع الله بهم راية الإسلام، وأعز بهم دينه، ولسنا في صدد ذكر أسمائهم، فهي معلومة للقاصي والداني.

وأفاقت أوروبا وبدأت خطوتها الأولى للتخلص من هَيْمنة رجال الدين، وبإقرارهم واعتراف أهل الإنصاف منهم، كانت الحضارة الإسلامية وعلماؤها وعلومهم التشريعية والدنيوية النافعة لها تأثيرات واضحة نهل منها علماء أوروبا، ما أعانهم على نهضتهم، وعكفوا يدرسون ويترجِمون علوم المسلمين، وزادوها بعلومهم المادية والكونية حتى صاروا ما هم عليه اليوم في دنيا الناس، ولكنهم أهملوا العلم الشرعي الذي يربطهم بخالقهم، ويبين لهم الحق من الباطل، والتوحيد من الشرك، ولعل تجربة ما قبل عصر النهضة وسيطرة رجال الدين كانت سببًا في عدم جمعهم بين العلم والإيمان، فضلُّوا عن الحق واتبعوا كل شيطان مَريدٍ.

ولا يغيب عنا انحطاطهم الأخلاقي إلا مَن رحم ربي منهم، رغم تقدُّمهم العلمي الذي سوف يفتكُ بهم ويُدمِّرهم بسبب طغيانهم وفسادهم وغرورهم بالعلم، حتى نسوا الله تعالى، وصاروا اليوم يتمنَّون الخلود، ويبحثون عن ترياق يُطيل العمر والشباب؛ حبًّا في الدنيا وشهواتها الزائلة، كما قال تعالى :﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٩٦].

قال السعدي – رحمه الله" :- ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنَّوا حالةً هي من المحالات، والحال أنهم لو عُمِّروا العمر المذكور، لم يغنِ عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم من العذاب شيئًا.

﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم"؛ اهـ.[١٤٠]

وسوف نرى في هذا المبحث عظمةَ الإسلام وشريعته، التي جعلت طلبَ العلم فريضةً يُثَاب عليها العبد من ربه، وجعلت العلماء ورثة الأنبياء، ومصابيح الدجى، وحاملي لواء الحق، وشهدت لهم بالفضل والرفعة.

وسيكون مدخلُنا لذلك في بيان ثلاثة محاور أساسية، وهي كما يلي:

المحور الأول :بيان أن العلم والإيمان في الإسلام لا يفترقان.

المحور الثاني :بيان أن العلوم الشرعية هي روح الأمة وعزَّتها.

المحور الثالث :بيان أن حياة الأمة في الاهتمام بالعلم والعلماء.

وإلى القارئ البيان والتوضيح للمحاور الثلاثة، مع الالتزام بالأدلة الشرعية؛ لتقوم الحجة على مَن يقدح في الإسلام ويقول: إنه سبب التخلف والجمود من أحفاد أبي جهل، وهم في كل عصر ومصر، والله المستعان، وعليه التكلان.

المحور الأول

بيان أن العلم والإيمان في الإسلام لا يفترقان

نبدأ ونقول – بحول الله وقوته –: إن دين الإسلام وهو دين سماوي يدعو الناس لعبادة الله الواحد الأحد الخالق البارئ، وعدم الشرك به، ويدعوهم للإيمان به وبأسمائه وصفاته، فهو رسالة روحية إيمانية، وتشريعية خاتمة، تسمو بالنفس البشرية للسمو والرقي بينها وبين خالقها، إن دخل الإيمان بالله والغيب قلبَ صاحبها من أول وهلة بلا شك أو ريب، ويبين ذلك قوله تعالى :﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ *الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ *وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

---

١٤٠ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/ ٥٩)

أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ *أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾]البقرة: ٢ – ٥[.

قال السعدي في شرح الآيات البينات ما نصه:

وقوله :﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾؛ أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كُتُب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين، فـــ ﴿ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم ضده؛ إذ ضد الريب والشكِّ اليقينُ، فهذا الكتاب مشتملٌ على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدةٌ، أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمنًا لضده، وهو الكمال؛ لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين، وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين، قال :﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾، والهدى ما تحصل به الهداية من الضلالة والشُّبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال :﴿ هُدًى ﴾ وحذف المعمول، فلم يقُلْ: هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني؛ لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارينِ، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومُبين للحق من الباطل، والصحيح من الضعيف، ومُبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم، في دنياهم وأخراهم"؛ اهـــ.[١٤١]

قلتُ:

أما النفس الأمَّارة بالسوء، فمجبولةٌ على التمرد على ربها ورازقها، لا يرضيها مجرَّد القول بالإيمان بالأدلة الشرعية من القرآن والسنة، وإنما باليقين الذي تدل عليه الشواهد والثوابت، ومن ثَمَّ كان اهتمام الإسلام بالعلم المادي والكوني من العلوم الدنيوية كاهتمامه بالعلم الشرعي؛ رحمةً بهؤلاء المخدوعين وإقامة الحجَّة عليهم من جنس ما يفقهونه.

قال ابن العثيمين – رحمه الله:-

والمواعظ الكونية أشدُّ تأثيرًا لأصحاب القلوب القاسية، أما المواعظ الشرعية، فهي أعظم تأثيرًا في قلوب العارفين بالله اللّيِّنة قلوبُهم؛ لأن انتفاع المؤمن بالشرائع أعظم من انتفاعه بالمقدورات.

---

[١٤١] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/ ٤٠).

وأضاف – رحمه الله:–

إن الذين ينتفعون بالمواعظ هم المتقون، وأما غير المتقي، فإنه لا ينتفع لا بالمواعظ الكونية، ولا بالمواعظ الشرعية، قد ينتفع بالمواعظ الكونية اضطرارًا وإكراهًا؛ وقد لا ينتفع، وقد يقول: هذه الأشياء ظواهر كونية طبيعية عادية، كما قال تعالى :﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴾]الطور: ٤٤[، وقد ينتفع ويرجع إلى الله تعالى، كما قال تعالى :﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾]العنكبوت: ٦٥[، وقال تعالى :﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾]لقمان: ٣٢["؛ اهـ.[١٤٢]

قلت:

إذاً الإسلام جعل من ثوابته حتميةَ الجمع بين العلم والإيمان لا يطغى أحدهما على الآخر؛ لينهل العباد كلٌّ حسب حاله ويزيده يقينًا وإيمانًا بالله الإله الحق المتفرِّد بالوحدانية والخلق والتدبير.

والحاصل مما ذكرنا أن العلم والإيمان لا غنى لأحدهما عن الآخر، وقد أفاضت الشريعةُ ببيان ذلك بأدلةٍ كثيرة من الكتاب والسنة؛ منها:

قوله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾]الروم: ٥٦[.

وقوله تعالى :﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾]الحج: ٥٤[.

وقوله تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾]القصص: ٨٠[.

يقول ابن القيم – رحمه الله:–

أفضل ما اكتسبَتْه النفوسُ، وحصَّلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة – هو العلم والإيمان؛ ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ

---

١٤٢ - تفسير العلامة محمد العثيمين – مصدر الكتاب: موقع العلامة العثيمين (٣/ ١٦٧)

الْبَعْث فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْث وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾]الروم: ٥٦[، وقوله :﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾]المجادلة: ١١[.

وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبُّه، والمؤهَّلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان اللَّذينِ بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتهما، حتى إن كل طائفة تظنُّ أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تنالُ السعادةَ، وليس كذلك، بل أكثرهم ليس معهم إيمان يُنجي ولا علم يرفع، بل قد سدُّوا على نفوسِهم طُرُقَ العلم والإيمان اللَّذينِ جاء بهما الرسول ودعا إليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم"؛ اهـــ.[١٤٣]

قلت:

وينبغي على مَن آمَن بلسانه ولم يُؤمِن بقلبه، وتكبَّر بعلمه، وكفر بنعمة الله تعالى عليه، وأبى أن يكون علمه وإنجازاته في حدود الشرع المطهَّر، ورد فضل علمه إليه وحده لذكائه وخبرته وحنكته، وحاد عن الإيمان والطريق القويم - أن يعلم أن الله تعالى هو العليم الحكيم، وإليه ينتهي العلم والحكمة، وهو الفقير إلى رحمته وكرمه وفضله، وهو سبحانه - جل جلاله - غنيٌّ عن العالمين، كما قال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾]فاطر: ١٥[.

قال السعدي - رحمه الله -: يُخاطِب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم؛ فلولا إيجاده إياهم، لم يُوجَدوا.

فقراء في إعدادِهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعدادُه إياهم بها، لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنِّعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضلُه وإحسانه وتيسيره الأمور، لَما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرفِ النِّقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد؛ فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرَّت عليهم المكاره والشدائد.

---

١٤٣ - انظر: الفوائد؛ لابن قيم الجوزية ص١٠٣.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير.

فقراء إليه في تألُّهِهم له وحبهم له وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يُوفِّقهم لذلك، لهلكوا وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه في تعليمِهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم؛ فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفَّق منهم الذي لا يزال يشاهد فقرَه في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له ويسأله ألاَّ يكِلَه إلى نفسه طرفةَ عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾؛ أي: الذي له الغنى التامُّ من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق؛ وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت جلال.

ومن غناه تعالى أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته وأسمائه؛ لأنها حسنى، وأوصافه؛ لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه، الغني في حمده"؛ اهـ.[١٤٤]

المحور الثاني

بيان أن العلوم الشرعية هي روح الأمة وعزها

ورب الكعبة، لن تقومَ نهضةٌ حقيقيةٌ قائمة على الصدق والتفاني والتضحية لهذه الأمة إلا بالعودة إلى دين الله تعالى، والعمل بالشريعة الخاتمة، والتمسك بنصوص الوحيين كمنهج حياةٍ للأمة، والخروج من

١٤٤ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/ ٦٨٧).

هذه الغيبوبة الدنيوية وشهواتها الزائلة، التي جعلتنا هلكى وصرعى نتخبَّط في دروبها بلا غاية ولا هدف، تحت رحمة أعداء الدين وأذنابهم من خطباء الفتنة وأنصار الظَّلَمة، الذين جعلونا أذلة نُشكِّك في مصدرَي قوَّتنا وعزتنا: القرآن والسنة، ونتبع مبادئ وقوانين زادتْنا ضعفًا على ضعف، ووهنًا على وهن؛ حتى ذهبت ريحُنا، وضعُفَت شوكتنا، وتكاثرت علينا الأمم كما أخبرنا الصادق المعصوم صلى الله عليه وسلم:))يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها((، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال:))بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدورِ عدوِّكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبِكم الوهن((، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال:))حب الدنيا وكراهية الموت((.[١٤٥]

ورضي الله عن الفاروق عمر عندما قالها واضحةً جليلةً لكل غافل وجاهل بعظمة الإسلام ورسالته، قال" :كنا أذلاَّء، فأعزنا الله بالإسلام، فإذا ابتغينا العزة في غيره، أذلنا الله."

ونقولُها واضحةً جلية: إن أسباب النصر والتمكين بالعودة إلى ديننا وشريعتنا الغرَّاء، وفهمها وتطبيقها، والدعوة إليها بكل الوسائل الشرعية المتاحة، بلا إفراط أو تفريط، وهذه مسؤولية الأمراء والعلماء.

يقول ابن العثيمين:

"ولا شك أن العلم الكامل الذي هو محل الحمد والثناء هو العلم بالشريعة؛ ولذلك نقول: إن عصر النبوَّة هو عصر العلم، وليس عصرنا الآن هو عصر العلم الذي يمدح على الإطلاق، لكن ما كان منه نافعًا في الدين، فإنه يمدح عليه لهذا"؛ اهـ.[١٤٦]

وقال – رحمه الله – في فتوى له بتصرف يسير:

لا شك أن الأصل هو العلوم الشرعية، ولا يمكن لإنسان أن يعبد الله حقَّ عبادته إلا بالعلم الشرعي، كما قال الله تعالى :﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨]، فلا بدَّ من العلم الشرعي الذي تقوم به حياة المرء في الدنيا والآخرة، ولا يمكن لأي دعوةٍ أن تقوم إلا وهي مبنيَّة على العلم.

---

١٤٥ - أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وصحح الألباني إسناده في الصحيحة برقم ٩٥٨، والمشكاة برقم ٥٣٦٩.

١٤٦ - تفسير العلامة محمد العثيمين – مصدر الكتاب: موقع العلامة العثيمين (١١٣/٤)

وأضاف :والعلوم الشرعية تنقسم إلى قسمين:
قسم لا بد للإنسان من تعلُّمه، وهو ما يحتاجه في أمور دينه ودنياه.

وقسم آخر وهو فرض كفاية، فإنه هنا يمكن الموازنة بينه وبين ما تحتاجه الأمة من العلوم الأخرى التي ليست من العلوم الشرعية.

وكذلك العلوم الأخرى التي ليست من العلوم الشرعية تنقسم إلى ثلاثة أقسام:
١-قسم علوم ضارة، فيَحرُم تعلمها، ولا يجوز للإنسان أن يشتغل بهذه العلوم مهما تكن نتيجتها.

٢-قسم علوم نافعة، فإنه يتعلم منها ما فيه النفع.

٣-وقسم العلوم التي جهلُها لا يضر والعلم بها لا ينفع، وهذه لا ينبغي للطالب أن يقضي وقته في طلبها؛ اهـ.[١٤٧]

قلت :والمسلمون اليوم بسبب محاربتهم واحتقارهم للعلم الشرعي وأهله، صار التخلف والجهل من سمات المجتمعات المسلمة، التي انتشرت في ربوعِها البدع والشركيات والخرافات والدجل، وطغت المعتقدات الباطلة على مصدرَي قوتهم وعزهم: القرآن والسنة، إلا مَن رحم ربي، بل يرى بعض أحفاد أبي جهل - وهم منا، ويتكلمون بألسنتنا - أن الدين الإسلامي هو سبب تخلُّف المسلمين اليوم، كبُرَت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا.

وكيف يصح هذا القول، وقد ثبت عن النبي أنه قال:))أنتم أعلم بأمر دنياكم))[١٤٨]؟!
قال ابن العثيمين:

---

١٤٧ - انظر: مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين - جمع وترتيب/ فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، (٥٣/٢٦) سؤال رقم ١٧.

١٤٨ - أخرجه مسلم برقم ٤٣٥٨ - باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره من معايش الدنيا.

"ومراده أنتم أعلم بأمور دنياكم، ليس بالأحكام الشرعية فيها، ولكن بتصريفها والتصرُّف فيها، فنحن أعلم بالدنيا من حيث الصناعة، أما من جهة الأحكام، فهي إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم"؛ اهـــ.

والإسلام وشريعتُه لا يحارب العلوم الدنيوية النافعة التي تترقى بالبشرية، وتخدم الإنسانية؛ لتقربها من الله تعالى، وتدرك عظمته وآياته في الآفاق، كما قال تعالى :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾]فصلت: ٥٣[.

وهذه دعوة صريحةٌ من القرآن للنظر والاستدلال والحث على العلم من أجل المعرفة واليقين، وسوف تظلُّ هذه الآية تُقرَأ بصيغة المستقبل؛ ليُدرِك العباد عظمةَ ربهم وخالقهم وحكمته وقدرته، والمتأمِّل للكثير من آيات القرآن يجد نفس الوتيرة في مخاطبة العقل والفكر والتدبر والحث على الفهم، ولا فهم إلا عن علم وإدراك، ولا علم إلا بالإيمان بالله ورسالته الخاتمة التي أشاحت بنورِها ظلمات الجاهلية والكفر، وأطاحت بطغيان الجبابرة والأكاسرة، وزادت من قيمة الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة.

والإنسان الذي يبتغي الحقَّ ويُدرِك قيمةَ العقل والعلم إنْ أدرك حقيقة المنهج الرباني للإسلام والغاية من الوجود، فسوف تتجلى له عظمة هذا الدين، وأنه رسالة الله للعالمين.

•قال تعالى :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾]محمد: ٢٤[.

قال السعدي – رحمه الله – في بيانها ما نصه:

"أي: فهلاَّ يتدبَّر هؤلاء المُعرِضون لكتاب الله، ويتأمَّلونه حق التأمل، فإنهم لو تدبَّروه، لدلَّهم على كل خير، ولحذَّرهم من كل شر، ولملأ قلوبهم من الإيمان، وأفئدتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيَّن لهم الطريق الموصلة إلى الله وإلى جنته، ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرَّفهم بربهم وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوَّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهَّبهم من العقاب الوبيل.

﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾؛ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبدًا، هذا هو الواقع"؛ اهـــ.[149]

ولا نُعيد ما سبق وبيّنّاه سلفًا عن علماء المسلمين، الذين كان علمُهم الشرارةَ الأولى التي مهَّدت لنهضة أوروبا الحديثة؛ وإنما مرادنا هنا أن نُبيِّن أن العلوم الشرعية بصفة خاصة وغيرها من العلوم النافعة التي تندمج في إطارها وتعاليمها، ولا تخرج عن حدودها إلى ما حرم الله تعالى، وتساهم في خدمة العباد، وترتقى بهم إلى الأفضل والأسمى، وتساهم في سلوك طريق الحق والرشاد – هما منهج حياة الأمة وسبب قوتها وعزتها بين الأمم، دون أن يطغى هذا على ذاك ليحدثَ التوازن بين غرور العلم المادي الصِّرف وانطلاقاته التي لا يحدُّها حد، وبين الإيمان بمنهج الله تعالى وما أوحى به لرسوله صلى الله عليه وسلم؛ ليحدث التجانس والجمع بين عبادة الله وطاعته وسعادة الإنسان دينًا ودنيا.

المحور الثالث

بيان أن حياة الأمة في الاهتمام بالعلم والعلماء

لا أغالي إن قلتُ: ما من دينٍ أجلَّ العلمَ وأهله كدينِ الإسلام، ويكفي أن أول آية نزلت منه على النبي الأمين صلى الله عليه وسلم هي قوله تعالى :﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ *خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ *الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾]العلق: ١ – ٥[.

قال البغوي – رحمه الله:-

أكثر المفسرين على أن هذه السورة أول سورةٍ نزلت من القرآن، وأول ما نزل خمس آيات من أولها إلى قوله: {مَا لَمْ يَعْلَمْ}؛ اهـــ.[150]

بل إن الله تعالى مدح أهل العلم ووصفهم بالخشية منه، وهي صفة جليلة، فقال تعالى :﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾]فاطر: ٢٨[.

قال ابن العثيمين – رحمه الله:-

---

[149] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/ ٧٨٨ – ٧٨٩)

[150] - انظر: تفسير معالم التتريل؛ للإمام البغوي (٨/٤٧٤).

والخشية هي الخوفُ المَقْرونُ بالتعظيم، فهي أخص من الخوف، فكل خشية خوف، وليس كل خوف خشية؛ ولهذا يخاف الإنسان من الأسد ولكنه لا يخشاه، أما الله عز وجل، فإن الإنسان يخاف منه ويخشاه، قال الله تعالى :﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾]المائدة: ٤٤[، ولكن مَن هم أهل الخشية حقًّا؟

أهل الخشية حقًّا هم العلماء، العلماء بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، الذين يعرفون ما لله – عز وجل – من الحِكَم والأسرار في مقدوراته ومشروعاته جل وعلا، وأنه – سبحانه وتعالى – كامل من كل الوجوه ليس في أفعاله نقصٌ، ولا في أحكامه نقص؛ فلهذا يخشَون الله عز وجل، وفي هذا دليلٌ على فضيلةِ العلم، وأنه من أسباب خشية الله، والإنسان إذا وُفِّق للخشية عُصِم من الذنوب، وإن أذنب استغفر وتاب إلى الله عز وجل؛ لأنه يخشى الله، يخافه، يُعظِّمه"؛ اهـــ.[١٥١]

قلت :والمتأمِّل في القرآن والسنة يجدُ آيات بيِّنات، وأحاديث جَمَّة، تدل على أهمية العلم وكرامة العلماء في دين الإسلام؛ منها على سبيل المثال: قوله تعالى :﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾]الزمر: ٩[، والآية واضحةٌ لا تحتاج لبيانٍ أو شرح، وهي تمدح أهل العلم وتضعُهم في المكانة اللائقة بهم.

وقال تعالى :﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾]المجادلة: ١١[.

قال الشوكاني في بيانها ما مختصره:

في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيهما، ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾؛ أي: ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، ومعنى الآية: أنه يرفع الذين آمنوا على مَن لم يؤمن درجات، ويرفع الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا درجات، فمن جمع بين الإيمان والعلم، رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات"؛ اهـــ.

ومن السنة الصحيحة الكثير من الأدلة، وذكرنا بعضها، ونكتفي هنا بحديث :))مَن سلك طريقًا يطلب فيه علمًا، سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم رضًا بما

[١٥١] - شرح رياض الصالحين؛ لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين (١٥٧٩/١)، باب فضل السماحة في البيع.

يصنع، وإن العالِم ليستغفرُ له من في السموات ومَن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثةُ الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا؛ إنما ورَّثوا العلم؛ فمن أخذه، أخذ بحظ وافر)).[١٥٢]

ومن هذه الأدلة الشرعية من القرآن والسنة ينبغي أن نُنبِّه على مسألتين في غاية الأهمية والخطورة على حياة الأمة وتراثها الفكري والروحي.

المسألة الأولى: خطورة كتمِ العلم ومحاربة أهله:

خطورة كتم العلم وتهديد العلماء أو محاربتهم، ومنعهم من بيانِ أحكام الشريعة، والجهر بالحق من أهل الحل والعقد القائمين على أمر الأمة - عظيمٌ جدًّا، ولا تقوم أمةٌ على عقول وأهواء سفهائها الذين ينشرون أفكارهم الضحلة دفاعًا عن عقيدة أو فكر بشري شاذٍّ يُعادِي دين الله تعالى، ويلحد في صفاته وأسمائه، ويشرع للناس أحكامًا ما أنزل الله بها من سلطان، ولا أوحى بها إلى نبي من الأنبياء؛ وإنما حياة الأمم بالعلماء وأُولي الألباب منهم الذين يبينون ويستنبطون أحكام الشرع وما يُرضِي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في كل جديد مستحدث في دنيا الناس من نصوص الوحيَيْن، وفيهما الخير والكمال كله.

قال تعالى محذِّرًا العلماءَ والأمراء على السواء من كتم العلم، سواء كان كتمه من السلطان بترهيب علماء الأمة الثقات، ووضع العراقيل أمامهم لكتم شهادتهم وعلمهم، أو لخوف العلماء أنفسهم على حياتهم من السلطان، بعد أن أنعم عليهم بالعلم وأخذ منهم الميثاق، كما فعل أهل الكتاب فضلُّوا وأضلُّوا قومهم، فخسروا الدنيا والآخرة، قال تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قال السعدي - رحمه الله:-

الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى على كل مَن أعطاه الله الكتبَ وعلَّمه العلم، أن يُبيِّن للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل مَن عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يُبيِّنه، ويوضح الحق من الباطل.

---

١٥٢ - انظر: حديث رقم: ٦٢٩٧ في صحيح الجامع.

فأما الموفَّقون، فقاموا بهذا أتم القيام، وعلَّموا الناس مما علمهم الله، ابتغاءَ مرضاة ربهم، وشفقةً على الخلق، وخوفًا من إثم الكتمان.

وأما الذين أوتوا الكتاب، من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم يعبؤوا بها، فكتموا الحق، وأظهَروا الباطل، تجرَّؤا على محارم الله، وتهاونوا بحقوق الله وحقوق الخلق، واشترَوا بذلك الكتمان ثمنًا قليلاً، وهو ما يحصل لهم – إن حصل – من بعض الرياسات والأموال الحقيرة من سفلتهم المتَّبِعين أهواءهم، المقدِّمين شهواتِهم على الحق، ﴿ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾؛ لأنه أخس العوَض، والذي رغبوا عنه – وهو بيان الحق، الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدينية والدنيوية – أعظم المطالب وأجلُّها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا الغالي النفيس، إلا لسوءِ حظِّهم وهوانِهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له"؛ اهـ.[١٥٣]

قلت :ولقد منَّ الله تعالى بفضله على العلماء من دون الخلق وجمعهم معه وملائكته المكرَّمين في الذَّود عن دينه بشهادة الحق وبيان سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولولا كرامتهم عنده – جل في علاه – ما شرَّفهم بالشهادة، قال تعالى :﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾]آل عمران: ١٨[.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله:-

"وإذا كانت شهادة الله تتضمَّن بيانه للعباد ودلالته لهم وتعريفهم بما شهد به لنفسه، فلا بد أن يُعرِّفهم أنه شهد، فإن هذه الشهادة أعظم الشهادات، وإلا فلو شهد شهادةً لم يتمكَّن من العلم بها، لم ينتفع بذلك، و لم تقم عليهم حُجَّة بتلك الشهادة، كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادةٌ لم يُبيِّنها بل كتمها، لم ينتفع أحد بها و لم تقم بها حجة؛ ولهذا ذمَّ سبحانه مَن كتم العلم الذي أنزله وما فيه من الشهادة، كما قال تعالى :﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾]البقرة: ١٤٠[؛ أي: عنده شهادة من الله وكتمها، وهو العلم الذي بيَّنه الله، فإنه خبر من الله وشهادة منه بما فيه.

---

١٥٣ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/١٦٠).

وقد ذم مَن كتمه كما كتم بعضُ أهل الكتاب ما عندهم من الخبر والشهادة لإبراهيم وأهل بيته، وكتموا إسلامهم وما عندهم من الأخبار بمثل ما أخبر به محمد صلى الله عليه وسلم، وبصفته، وغير ذلك، قال تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾]البقرة: ١٥٩[.

وقال تعالى :﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾]البقرة: ١٤٦[، والشهادة لا بدَّ فيها من علم الشاهد وصدقه وبيانه، لا يحصل مقصود الشهادة إلا بهذه الأمور؛ ولهذا ذمَّ مَن يكتمُ ويُحرِّفُ، فقال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾]النساء: ١٣٥["؛ اهـ.[١٥٤]

المسألة الثانية: مصيبة موت العلماء الثقات:

الموت حق ولا بد منه، فلم يكتب الله لأحد الخلود حتى لمن اصطفاهم بالرسالة والنبوة، كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾]العنكبوت: ٥٧[.
والعلماء خلقٌ من خلق الله لا بد أن يذوقوا سكرات الموت، ولكن موتهم يُؤدِّي لمصائب جَمَّة، من أعظمها ضياع العلم، ولا يخفى أن الناس في حاجة لبيان الحكم الشرعي الصحيح في الأمور المستجدَّة من العلماء العاملين أصحاب القلوب النيِّرة التقية، وقد أمرهم ربهم بسؤالهم، فقال – جل في علاه :– ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾]النحل: ٤٣[.

وبموتهم يضيع العلم، وينتشر الجهل والشرك، وتضيع السنن، وتكثر البدع والخرافات، ولن يجد الناس مَن يبيِّن لهم الحق بعدهم إلا أشباه العلماء، وهم أهل هوى ودنيا، الذين يفتون الناس حسب أهوائهم واتجاهاتِهم، وما في هذا من فساد وإفساد، ولقد بيَّن ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال:))إن الله لا يَنْزِعُ العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعًا، ولكن ينتزعُه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى ناس جهَّال، يُستفتون فيُفتون برأيهم، فيَضلُّون ويُضِلُّون)).[١٥٥]

---

[١٥٤] - مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (١٤/ ١٨٦)، فصل: وإذا كانت شهادة الله

[١٥٥] - أخرجاه في الصحيحين؛ البخاري برقم ٦٧٦٣– باب ما يذكر من ذم الرأي وتكلف القياس، ومسلم برقم ٤٨٢٩ – باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

وليعلم كل عالم دنيا أن الله – جل جلاله – لم يخلُق الخلق عبثًا، ويدل على ذلك قولُه تعالى :﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ *فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾]المؤمنون: ١١٥، ١١٦[.

قال السعدي – رحمه الله:–

أي :﴿ أَفَحَسِبْتُمْ ﴾ أيها الخلق ﴿ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾؛ أي: سُدى وباطلاً، تأكلون وتشربون وتمرحون وتتمتعون بلذَّات الدنيا، ونترككم لا نأمركم ولا ننهاكم، ولا نثيبكم ولا نعاقبكم؟ ولهذا قال :﴿ وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ لا يخطر هذا ببالكم، ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ ﴾؛ أي: تعاظم وارتفع عن هذا الظن الباطل، الذي يرجع إلى القدح في حكمته، ﴿ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾، فكونه ملكًا للخلق كلهم حقًّا في صدقه ووعده ووعيده، مألوهًا معبودًا، لما له من الكمال، ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الكريم ﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثًا"؛ اهـ.[١٥٦]

وختامًا لهذا المبحث نقولها واضحةً مما بيناه من أدلة شرعية:

إن الإسلام ليس دينَ عبادة فقط، ولا يدعو لترك الدنيا والزهد فيها، وإهمال ما تستقيم به حياة الناس من علوم دنيوية نافعة، ومتطلبات فطرية ضرورية لا غنى للإنسان عنها، كما يفهم المتنطعون، فنكون عالةً على غيرنا، بل ينبغي الجمع بين الدين والدنيا، والسعي للأخذ بالأسباب في إطار تعاليم شريعتنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم.

وكفى بيانًا ودليلاً قاطعًا لكل مَن يريد عزل الدين عن الدنيا؛ لأنها دار بلاء وفتن، ويذم مَن يبتغي الإصلاح فيها والاستفادة منها مما أباحه الشرع من الطيبات والعلوم التي لا تستقيم حياةُ الإنسان إلا بها – قولُ الله تعالى :﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾]القصص: ٧٧

المبحث الخامس

الإسلام والسمو الروحي للإنسان

[١٥٦] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/ ٥٦).

بادئ ذي بدء نقول :إن الإنسان – كما هو معلوم – روحٌ وجسد، والروح باقية خالدة، تسمو وتترقى في النعيم السرمدي، إن كان صاحبها من أهل اليمين؛ قال تعالى :﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ *كِتَابٌ مَرْقُومٌ *يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ *إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ *عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ *تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ *يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾]المطففين: ١٨ – ٢٥].

وتَشقى وتُعذَّب في أسفل سافلين في النار، إن كان صاحبها من أهل الشِّمال، والعياذ بالله؛ قال تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ *فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ *وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ *لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ *إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ *وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴾]الواقعة: ٤١ – ٤٦].

ومعلوم في عقيدتنا أن الرُّوح سرٌّ من أسرار الله تعالى، حجَب أمرها عن خَلقه، فلا يستطيع الإنسان مهما بلَغ من العلم في دنيا الناس أن يدريَ عنها شيئًا؛ قال تعالى :﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾]الإسراء: ٨٥].

قال السعديُّ: وهذا متضمن لردع مَن يسأل المَسائل التي لا يقصد بها إلا التعنُّت والتعجيز، ويدَع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفَها وكيفيتها كلُّ أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد.

ولهذا أمَر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله :﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾]الإسراء: ٨٥]؛ أي: من جملة مخلوقاته، التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبيرُ فائدة، مع عدم علمكم بغيرها[١٥٧]؛ اهـ.

قلت: ومن العجيب أن يختلف الفضلاء من أهل العلم في بيان المقصود بالرُّوح إلى أقوال كثيرة، ووجه العجب أنها من الأمور التي أستأثر الله بعلمها، ومن الخطأ الذي ينبغي أن يترفعَ عنه العقلاء والفضلاء من الناس الخوضُ في أمرٍ سدَّ الله الباب لمعرفته، وجعله سبحانه سرًّا من أسراره التي لا يطلع عليها أحد، لا نبيٌّ مرسَل، ولا ملَك مقرَّب.

---

١٥٧ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة)١/ ٤٦٦).

وليس مقصودنا في هذا المبحث بيانَ هذه الأقوال ومناقشتها، وبيان عليلها من سقيمها، وما تؤيده الأدلةُ والشواهد وما تنفيه؛ فهو علمٌ لا ينفع، وجهل لا يضر، رغم يقيننا أن فضول الإنسان وغروره لا يحُده حد، وسيظل هذا المخلوق الضعيف يسعى للتنقيب والبحث إلى أبعد مدًى، ليدرك أسرار الحياة في دنياه، ولو حجب الله عنه أسبابها ومسبباتها، ولن يرده قول الحق تعالى :﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِن الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥]، إلا مَن رحم ربي، وهو الهادي إلى صراطه المستقيم.

وأنا على يقين أن كل محاولات بعضِ العلماء الماديين وغرورهم الذي تجاوز كل الخطوط الأخلاقية والدينية، لن تفتُر أبدًا، وتجاربهم لن تنتهي لمعرفة أسرار الكون والحياة، وكذلك الفلاسفة وشطحاتهم الفكرية، وأمثالهم ممن لا يؤمنون بالإله الحق من أهل الألحاد، لن يكفوا ألبتة عن السعي إلى معرفة سر الروح وكُنهها، وستذهب دومًا محاولاتهم الدنيئة هباءً منثورًا، والمؤمن بالله – عز وجل – لا يجري وراء سراب وشطحات وغرور هؤلاء، ولكن يرضى بما فتَح الله عليه من أسرار للسمو بالروح والجسد معًا، بشريعة سماوية وتعاليم غاية في السمو، تترقى بالنَّفس البشرية، وتتجانس مع الفطرة السوية، ما دام حيًّا يُرزق في هذه الحياة الدنيا.

وعليه أن يتأسى بالملائكة المقربين، الذين عرَفوا الحق، وآمَنوا أنَّ إلى الله – جل في علاه – المنتهى في العلم والحكمة، فقالوا كما قال تعالى :﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢].

والروح – كما هو معلوم لمن يتدبَّر كتاب الله عز وجل – لها مدلولات كثيرة في القرآن، وما يَعنينا هنا من أمر الروح ما جاء ذكرها مرتبطًا بالجسد، وبدهيٌّ لا حياة للجسد إلا بها، والمتأمِّل للقرآن الكريم يجد أن الله تعالى يخاطب الرُّوح والجسد ويسميهما نفسًا[١٥٨]، وهي التي أقسم الله – جل وعلا – بها في سورة الشمس، فقال – جل في علاه :- ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠].

---

١٥٨ - جاء في اللسان لابن منظور مادة: روح (٢/٤٥٥): والجمع: أرواح، والرُّوح: النَّفْس، يذكَّر ويؤنَّث .. قال أبو بكر بن الأنباري: الروح والنَّفس واحد، غير أن الروح مذكَّر، والنفس مؤنثة عند العرب، وفي التنزيل :﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وتأويل الروح أنه ما به حياة النَّفس؛ اهــ.

قال ابن كثير في تفسيرها ما مختصره: "قوله :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾؛ أي: خلَقها سويَّة مستقيمة على الفطرة القويمة، كما قال تعالى :﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كلُّ مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كما تولد البهيمة بهيمة جَمْعَاء، هل تُحسُّون فيها من جدعاء؟)).[١٠٩]

وقوله :﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾؛ أي: فأرشدَها إلى فجورها وتقواها؛ أي: بيَّن لها ذلك، وهداها إلى ما قُدِّر لها.

قال ابن عباس :﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ :بيَّن لها الخير والشر، وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحَّاك، والثَّوري.

قوله :﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ :يحتمل أن يكون المعنى: قد أفلح من زكَّى نفسه؛ أي: بطاعة الله – كما قال قتادة – وطهَّرها من الأخلاق الدَّنيئة والرَّذائل[١٦٠]"؛ اهـــ.

قلت: ولا يخفي أن الروح مرتبطة بجسد صاحبها، وهذا الجسد إلى فَناء، ويصير إلى أصله الذي خُلق منه، وهو التراب؛ قال تعالى :﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ [طه: ٥٥].

•يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ما مختصره: "والرُّوح المدبِّرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الرُّوح المنفوخة فيه، وهي النَّفس التي تفارقه بالموت؛ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لما نام عن الصلاة: ((إن الله قبض أرواحنا حيث شاء، وردَّها حيث شاء))[١٦١]، وقال له بلال: يا رسول الله، أخَذ بنفسي الذي أخَذ

---

١٠٩ - أخرجه البخاري برقم/ ١٢٩٦ – باب ما قيل في أولاد المشركين، ومسلم برقم / ٤٨٠٣ – باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

١٦٠ - تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع (٤١١/٨)

١٦١ - انظر صحيح أبي داود للألباني برقم/ ٤٦٦ – باب من نام عن الصلاة أو نسيها.

بنفسك[١٦٢]، وقال تعالى :﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾]الزمر: ٤٢[، قال ابن عباس وأكثرُ المفسِّرين: يقبضها قبضين: قبض الموت، وقبض النوم، ثم في النوم يقبض التي تموتُ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمًّى حتى يأتيَ أجلها وقت الموت، وقد ثبت في الصحيحين عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا نام:))باسمِك ربِّي وضعتُ جَنبي، وبك أرفعه، إن أمسكتَ نفسي، فاغفِرْ لها وارحَمْها، وإن أرسلتَها، فاحفَظْها بما تحفظ به عبادَك الصالحين)).[١٦٣]

ثم قال – رحمه الله –: وفي الحديث الصحيح:))إن الرُّوح إذا قُبِض، تبِعه البصر))[١٦٤]؛ فقد سمَّى المقبوضَ وقت الموت ووقت النوم رُوحًا ونَفْسًا، وسمى المعروج به إلى السماء روحًا ونفسًا، لكن يسمَّى نفسًا باعتبار تدبيره للبدن، ويسمى رُوحًا باعتبار لُطفه؛ فإن لفظ "الرُّوح" يقتضي اللُّطف؛ ولهذا تسمَّى الريح رُوحًا[١٦٥]"؛ اهـــ.

قلت :والسمو والترقي بالروح والجسد له أسباب ومسببات خلقها الله، ويسَّر للإنسان بلطفه وكرمه الوصول إليها، والإحساس بنتائجها في دنياه الفانية، وجعله مخيَّرًا في سلوك الطريق المستقيم، أو الطريق المظلم، الذي يُهين النفس، وينحط بالجسد، ويزري بالروح ومكانتها.

قال تعالى :﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ *أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ *يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا *أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ *أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ *وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ *وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾]البلد: ٤ – ١٠[.

قال السعدي :يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عملٍ يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

---

١٦٢ - انظر صحيح أبي داود للألباني (٤٦١ – ٤٦٣)، وهو في الإرواء برقم/٢٣٦.

١٦٣ - أخرجه البخاري برقم/٥٨٤٥ – باب التعوذ والقراءة عند المنام، ومسلم برقم/٤٨٨٩ – باب ما يقول عند النوم.

١٦٤ - أخرجه مسلم برقم/١٥٢٣ – باب في إغماض الميت والدعاء له.

١٦٥ - انظر مجموع الفتاوى (٢٨٩/٩) – فصل الرُّوح المدبرة.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذابَ الشديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنى :لقد خلقْنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقومِ خِلقة، يقدر على التصرُّف والأعمال الشديدة، ومع ذلك، فإنه لم يشكرِ الله على هذه النعمة العظيمة، بل بطِر بالعافية، وتجبَّر على خالقه، فحسب – بجهله وظلمه – أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرُّفه لا ينعزل؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾]البلد: ٥]، ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه؛ فــ ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾]البلد: ٦]؛ أي: كثيرًا، بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا؛ لأنه لا ينتفع المنفقُ بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندمُ والخَسَار والتعب والقلَّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير؛ فإن هذا قد تاجَر مع الله، وربح أضعافَ أضعافِ ما أنفق.

قال الله متوعدًا هذا الذي يفتخر بما أنفق في الشهوات :﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾]البلد: ٧]؛ أي: أيحسب في فعله هذا أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟
بل قد رآه الله، وحفِظ عليه أعماله، ووكَّل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه، فقال :﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ *وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾]البلد: ٨، ٩] للجمال والبصَر والنُّطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدِّين :﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾]البلد: ١٠]؛ أي: طريقَيِ الخير والشر، بيَّنَّا له الهُدى من الضلال، والرُّشد من الغي.

فهذه المِنَن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وألا يستعين بها على معاصيه، ولكن هذا الإنسان لم يفعَل ذلك[١٦٦]؛ اهـــ.

قلت: وذلك إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، ولا ريب أن الغايةَ من الدنيا وما فيها للإنسان السوي هي الفوز بالحياة الحقيقية، وفيها أعلى درجات الترقي والسمو للنفس البشرية في دار الخلد والمقامة؛

---

١٦٦ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/ ٩٢٤).

كما قال الحقُّ – تبارك وتعالى – في كتابه الكريم :﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾]العنكبوت: ٦٤[.

قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، وغاية ما فيها لهو ولعب :﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾]العنكبوت: ٦٤[؛ أي: الحياةُ الدائمة الحق، الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد.

وقوله :﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾]العنكبوت: ٦٤[؛ أي: لآثروا ما يبقى على ما يفنى[١٦٧]"؛ اهـــ.

ولا يخفى على مَن له أدنى بصيرة بما يصلح الإنسان للسمو بالنفس روحيًّا وجسديًّا أن رسالة الإسلام وتعاليمه فيها ما يشبع نهمه، ويروي ظمأه؛ لأنها رسالة تخاطب الوجدان، وترتقي بالسرائر، كما سوف نبين في هذا المبحث، وسيكون مدخلنا لبيان ذلك في ثلاثة محاور على الأقل:
المحور الأول :بيان حقيقة ارتباط النفس البشرية وسموها بخالقها ورازقها في الإسلام.

المحور الثاني :بيان أن رسالة الإسلام وتعاليمه تسمو بالعلاقات بين البشر.

المحور الثالث :بيان أن تعاليم الإسلام تسمو بالإنسان مع نفسه التي بين جنبيه.

وها هي المحاور الثلاثة مع الشرح والبيان بالأدلة الشرعية؛ ليدرك الحاقدون والجاهلون بالإسلام حقيقته وسمو تعاليمه، وكمال شريعته، وأنه البلسم الشافي والكافي لِما أصاب الحياةَ الإنسانية من ضمور وجروح؛ لإهانتها للنفوس روحيًّا وجسديًّا بتعاليم وشرائع وفلسفات تحتقر النفس، وتزدري الروح والجسد، بدلاً من السمو والرقي، لعل وعسى يدرك الجميع قبل فوات الأوان أن الخلاص والنجاة في الرسالة الخاتمة، والمنهج الرباني، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والله المستعان، وعليه التكلان.

١٦٧ - تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع)٦ /٢٤٩(.

المحور الأول:

بيان حقيقة ارتباط النفس البشرية وسموها بخالقها ورازقها في الإسلام

نبدأ ونقول – بحول الله وقوته –: إن ارتباط النفس البشرية بخالقها ورازقها – جل وعلا – ارتباطٌ فطري، حتى من قبل أن يكون هناك وجود للبشرية في عالَم الأرواح منذ الأزل، ويدل على ذلك قوله تعالى :﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾]الأعراف: ١٧٢[.

•قال السعدي – رحمه الله –: "أي: أخرَج من أصلابهم ذريتَهم، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون قرنًا بعد قرن.

وحين أخرَجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾]الأعراف: ١٧٢[؛ أي: قرَّرهم بإثبات ربوبيَّته، بما أودعه في فِطَرهم من الإقرار بأنه ربُّهم وخالقهم ومَليكهم.

قالوا :بلى، قد أقررنا بذلك، فإن الله تعالى فطَر عباده على الدِّين الحنيف القيِّم.

فكل أحد فهو مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغيَّر وتبدَّل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة؛ ولهذا ﴿ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾]الأعراف: ١٧٢[؛ أي: إنما امتحنَّاكم حتى أقررتم بما تقرَّر عندكم، من أن الله تعالى ربُّكم؛ خشيةَ أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقروا بشيء من ذلك، وتزعمون أن حجَّة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها عِلم، بل أنتم غافلون عنها لاهُون.

فاليوم قد انقطعت حجتُكم، وثبتت الحجَّة البالغة لله عليكم[١٦٨]"؛ اهـــ.

---

١٦٨ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/ ٣٠٨).

•ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –: "فالنفس بفطرتها إذا تُركت، كانت مقرة لله بالإلهية، مُحبَّةً له، تعبده لا تشرك به شيئًا، ولكن يفسدها ما يزيِّن لها شياطين الإنس والجن، بما يوحي بعضهم إلى بعض من الباطل.[١٦٩]"

سمو النفس وارتقاؤها في الإيمان بالإله الحق:

لا يغيب عن العقلاء أن الإنسانَ بفطرته منذ الخليقة، يبحث عن الإله الحق، الذي ينفع ويضر، ويملك مقادير كل شيء، وقد تهتدي رُوحه لميثاق الفطرة وشَهادتها لله بالوحدانية، وقد تضلُّ عنه، ولكنه دومًا يشعر الإنسان – لضَعْفه كمخلوق – بالنَّقص وبحاجته إلى قوًى أكبرَ منه قادرة على إحساسه بعبوديته لها، سواء كان يعبدُ الله أو يعبد شيئًا غير الله.

وقد كانت رحمة الله بعباده أن أرسل لهم الرسل والأنبياء مبشِّرين ومنذرين؛ لسدِّ هذا النقص، وبيان الطريق إليه؛ حتى لا تكون لهم حُجَّة، وختمهم بنبي الإسلام، وختم الرسالات برسالة الإسلام، وارتضاه لهم دِينًا ومنهاجًا، وفي تعاليمه كل ما تهفو إليه النفسُ من راحة وسكينة، ورضًا وسمو، وحب وسلام.

قال تعالى :﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال السعدي :أرسلهم مبشِّرين لمن أطاع الله واتَّبعهم: بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين مَن عصى الله وخالَفهم: بشقاوة الدارين؛ لئلا يكون للناس على الله حُجَّة بعد الرسل فيقولوا :﴿ مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

فلم يبقَ للخَلْق على الله حُجَّة لإرساله الرسل تترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضيَ ربهم ومساخطَه، وطرق الجنة، وطرق النار؛ فمن كفَر منهم بعد ذلك، فلا يلومَنَّ إلا نفسَه.

وهذا من كمال عزَّته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه؛ حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظمَ ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطرار، فله

١٦٩ - انظر مجموع الفتاوى؛ لابن تيمية (٨/٢٠٥) – باب أنعم الله على بني آدم بأمرين.

الحمدُ، وله الشكر، ونسأله كما ابتدأ علينا نعمتَه بإرسالهم، أن يتمَّها بالتوفيقِ لسلوك طريقهم؛ إنه جَوَاد كريم[١٧٠]؛ اهـــ.

وينبغي أن نلفت النظر هنا إلى أن الفارق بين شعور المرء بالجلال والسمو في محبَّته للخالق – جل في علاه – وقُربه منه، يختلف بين إنسان وإنسان، وليس ذلك بسبب الجنس أو اللون أو الدِّين، بل في ماهية المعبود: أهو الله سبحانه وتعالى، الخالق الواحد الأحد المستحقُّ للعبادة، أم غيره من الآلهة التي يزيِّنها الشيطان لأوليائه وهي لا تملِكُ لهم ولا لأنفسهم نفعًا ولا ضراًّ ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!

ومعلوم للعقلاء أن النفس البشرية إن استجابت لنداء الفطرة، ستتجلى لها عظمةُ الله وقدرته، وسترى آلاءَه ونعمه التي لا تحصى، وستذوب في حبِّه ومناجاته، والمحروم هو مَن اتَّبع هواه، وضل عن سبيل الله وعبَد غيرَه.

ويبيِّن ذلك ابن القيم – رحمه الله – فقال بتصرف ما مختصره: وأعرَفُ الأُمَّة به أشدهم له حبًّا؛ ولهذا كان المنكرون لحبه من أجهل الخلق به.. ثم قال: وهل في الوجود محبة حقٌّ غيرُ باطلة إلا محبته سبحانه؟ فإن كلَّ مَحبة متعلقة بغيره فباطلة زائلة ببطلان متعلقها، وأما محبته سبحانه، فهو الحقُّ الذي لا يزول ولا يبطل، كما لا يزول متعلقها ولا يفنى، وكل ما سوى الله باطل، ومَحبَّة الباطل باطلٌ.

فسبحان الله !كيف يُنكِر المَحبَّة الحقَّ التي لا محبة أحقُّ منها، ويعترف بوجود المحبة الباطلة المتلاشية؟ وهل تعلقت المحبة بوجود محدث إلا الكمال فى وجوده بالنسبة إلى غيره؟ وهل ذلك الكمال إلا من آثارِ صُنع الله الذي أتقن كل شيء؟ وهل الكمال كله إلا له، فكل من أحب شيئًا لكمالٍ ما يدعوه إلى محبته، فهو دليل وعبرة على محبة الله، وأنه أَولى بكمال الحب من كل شيء.. ولكن إذا كانت النفوس صغارًا كانت محبوباتها على قدرها، وأما النفوس الكبار الشريفة، فإنها تبذُل حبَّها لأجلِّ الأشياء وأشرفها[١٧١]؛ اهـــ.

---

١٧٠ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١ /٢١٤).

١٧١ - انظر طريق الهجرتين؛ لابن القيم (١/٣١٩)

وبدهيٌّ أن من أحب شيئًا أطاعه، ورضي بقوله، وقدَّم محبته وما يرضيه على ما تحبه وتبغيه نفسه التي بين جنبيه، ولا عجب أن قال الصادق المعصوم مبلغًا عن الله تعالى في الحديث القدسي:))ما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتهُ كنت سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجْله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، وإن استعاذني لأُعيذنَّه)).[١٧٢]

نبي الإسلام الأسوة الحسنة للسمو والرقي:

إن اتِّباع الرسول صلى الله عليه وسلم والعمل بهديه يصل بالإنسان لدرجة عالية من السمو والسكينة، والله تعالى لا يأمر البشرية كافة باتباع النَّبي الخاتم المبعوث للناس كافة بالرسالة الخاتمة، التي ارتضاها دينًا لهم، إلا لأنه إليه المنتهى في السمو الإنساني، وغاية الكمال في الخُلق والأدب الراقي، الذي دلَّت عليه شمائلُه، فاصطفاه من خَلْقه، وأنعم عليه بالقُرب منه بما لَم يستطِعْ ملَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسَل أن يدنو دنوه؛ كما جاء في حديث الإسراء والمعراج؛ قال صلى الله عليه وسلم:))ثمَّ عُرِجَ بي حتَّى ظَهَرْتُ لُمستوًى أسمَعُ صَرِيفَ الأقلامِ)).[١٧٣]

لهذه الدرجة من السمو الروحي بين العبد وربِّه وصل النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وما كان ذلك إلا لصفاء سريرته، وحبِّ الله له، الذي جعل محبَّته وطاعتَه شرطًا لمحبَّة الله ومحبته لمن اهتدى بهديه وتأسى بسنَّته؛ فقال تعالى :﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾]آل عمران: ٣١، ٣٢[.

ولهذا كلِّه؛ لا عجَب أن يأمر اللهُ – جل في علاه – أن نتأسى به، فقال تعالى :﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾]الأحزاب: ٢١[.

•قال السعدي :﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾]الأحزاب: ٢١[؛ حيث حضر الهيجاءَ بنفسه الكريمة، وباشَر موقفَ الحرب، وهو الشَّريف الكامل، والبطَلُ الباسل، فكيف تشحُّون بأنفسكم عن أمر جادَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فيه؟

---

[١٧٢] - أخرجه البخاري برقم/٦٠٢١ – باب التواضع.

[١٧٣] - جزء من حديث أخرجه البخاري برقم/٣٠٩٤ – باب ذِكْر إدريس عليه السلام.

فتأسَّوْا به في هذا الأمر وغيره.

واستدلَّ الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الأصل أن أمتَه أسوتُه في الأحكام، إلا ما دلَّ الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فإن المتأسِّي به سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم.

وأما الأسوة بغيره، إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة؛ كقول الكفار حين دعَتْهم الرُّسل للتأسِّي بهم :﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلُكُها ويوفَّق لها من كان يرجو اللهَ واليوم الآخر، فإن ما معه من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه - يحثُّه على التأسِّي بالرَّسول صلى الله عليه وسلم[١٧٤]؛ اهـــ.

وها هي أمثلة بالأدلة الشرعية عن السمو بالنفس، الذي وصل إليه رسولُ الله، وكيف نتأسى به لتسموَ أنفسنا إلى خالقها ومَليكها - جل في علاه:-

• كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يُكثِر من الصلاة لله تعالى؛ لأنها الصلةُ بين العبد وربِّه، ودليلٌ على صِدْق العبودية من العبد للمعبود جل في علاه، ويُطيل فيها حتى تتورَّم قدماه، فتقول له أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لِمَ تصنعُ هذا يا رسولَ الله وقد غفَرَ اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخَّر؟ قال:))أفلا أحبُّ أن أكونَ عبدًا شكورًا)).[١٧٥]

---

١٧٤ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي - الناشر: مؤسسة الرسالة (١ /٦٦٠).

١٧٥ - أخرجه البخاري برقم/٤٤٦٠ - باب: ليغفر لك ما تقدم من ذنبك.

يقول ابن العثيمين :مغفرة الذنوب المتقدِّمة والمتأخِّرة ثابتة بالقرآن والسنَّة، وهذا من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام، لا أحدَ من الناس يُغفَر له ما تقدم وما تأخر إلا الرسول صلى الله عليه وسلم، أما غيره، فيحتاج إلى توبة من الذنب، وقد يغفر الله له – سبحانه وتعالى – بدون توبة ما دون الشرك، لكن الرسول عليه الصلاة والسلام نجزم بأنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ ولهذا قال :﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ *الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾]الشرح: ٢، ٣[[١٧٦]؛ اهـ.

قلت: والإنسان الذي يتأسى بالنبيِّ، ويصلي لله تعالى في إخلاص وصدق، سوف يستشعر عظَمةَ الله أمامه، ويعمل ما يُرضيه عنه، وينتهي عما يغضبه منه، وسوف تسمو نفسُه وتترقى عن المنكَر والفحش بسبب الصلاة؛ ودليل ذلك قوله تعالى :﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾]العنكبوت: ٤٥[.

•قال السعدي: "والفحشاء: كل ما استُعظِم واستُفحِش من المعاصي التي تشتهيها النفوس.

والمنكر: كل معصية تنكِرها العقول والفِطَر.

ووجهُ كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكَر: أن العبد المُقيم لها، المتمِّم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستنير قلبُه، ويتطهَّرُ فؤاده، ويزدادُ إيمانه، وتقوَى رغبته في الخير، وتقلُّ أو تعدم رغبته في الشر؛ فبالضرورة مداومتُها والمحافظة عليها على هذا الوجه تنهى عن الفحشاء والمنكَر؛ فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها.

وثَمَّ في الصلاة مقصودٌ أعظمُ من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن؛ فإن الله تعالى إنما خلَق الخَلْق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها ما ليس في غيرها[١٧٧]"؛ اهـ.

---

[١٧٦] - انظر تفسير القرآن؛ لابن العثيمين – تفسير سورة الشرح (٤/٣٢).

[١٧٧] - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (٦٣٢/١).

قلت :ومن قُرب وسمو النبي من الله تعالى كثرةُ ذِكره له – جل جلاله – في كل أحيانه، كما هو معروف ومأثور عنه صلى الله عليه وسلم، كان يذكرَ الله في دخول المسجد، والخروج منه، وعند الطعام والشراب، وعند سماع الأذان، ودخول البيت، والخروج منه، وعند النوم والاستيقاظ، وغير ذلك كثير.

ومن ثَم علينا أن نتأسى به في الذِّكر والاستغفار، وكذلك في الصيام، والصَّدقات، وحُسن الجوار، وحُسن الخُلق مع الناس، وكل عبادة يراد بها وجهُ الله تعالى، والتقرب إليه؛ لتسمو أنفسنا روحيًّا وجسديًّا، وتترقى وتصعد وتنهلُ من رحمة الله وكرمه وفضله وإحسانه لأوليائه وأحبَّائه من خَلْقه، حتى يذكره – جل في علاه – كلما ذكَره، وعمِل ما يُرضيه؛ كما قال تعالى :﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾]البقرة: ١٥٢[.

والحاصل مما سبق أن العبدَ إن أراد السمو روحيًّا وجسديًّا في علاقته بالخالق، فينبغي أن ننبه لأمرين؛ ليكون سموُّ النفس في علاقتها مع الله تعالى على أساس من تعاليم الشرع؛ أي: الكتاب والسنَّة النبوية، وليس الشائع بين الناس من بدعٍ وعادات وشركيات ما أنزَل الله بها من سلطان...، وها هما الأمران بشيء من التبسيط والبيان، والله المستعان.

الأمر الأول: التزام المنهج الشرعي في طريق العبد للارتقاء والسمو:

والمقصود بالمنهج الشرعيِّ الطريقُ أو السبيل الذي يبين للعباد أحكامَ وشريعة الله تعالى: دينًا ودنيا، ولا يكونُ ذلك إلا بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وعدم الميل عن الطريق القويم، وسبيل الرشاد، واتِّباع سنن الذين من قبلنا من المغضوب عليهم والضالين، لمن أراد الفلاح والرقي والسمو بالنفس، ويدل على ذلك آيات بينات من القرآن، منها:

♦قوله تعالى :﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾]المائدة: ٤٨[.

♦وقوله تعالى :﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾]المائدة: ١٥، ١٦[.

والآيات في ذلك كثيرةٌ، ومن السنَّة النبوية الصحيحة:

•قول النبي صلى الله عليه وسلم:))تركتُ فيكم أمرينِ لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما: كتابَ الله وسنَّتي، ولن يتفرَّقا حتى يردا عليَّ الحوضَ)).[١٧٨]

•وقوله صلى الله عليه وسلم:))أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن أُمِّر عليكم عبدٌ حبَشي؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم بسنَّتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدَثاتِ الأمور؛ فإن كل مُحدَثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة)).[2[١٧٩]]

فالنَّفسُ البشرية أحوجُ إلى معرفةِ طريق السموِّ الذي لا يخالطه رياء، ولا يشُوبه تصنُّع، ولا يُفتِّر حماسها وسموها خمولٌ وضعف، أو بلاء يصيب الجسد، أو هوى متبع، أو ما أشبه ذلك، بل النفس مجبولةٌ ومفطورة على الحقِّ، وهو أحقُّ أن يتَّبع؛ كما قال تعالى :﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [يونس: ٣٥].

ومن طُرق أو سبل الوصول للسمو الروحي والجسدي على سبيل المثال فيما يخص التوحيد ما نوضحه في السطور التالية:

لا يكون سموٌّ ربانيٌّ في قلب العبد تجاه معبوده بمخالفة ما كان عليه النبيُّ وأصحابه والرَّعيل الأول من توحيد الله في أسمائه وصفاته، بلا تمثيل، أو تكييف، أو تعطيل، كما يفعل بعض الصوفيين في عصرنا هذا من تصوُّف لا علاقة له بالتوحيد، بل كله شِركيات، وضلال ما بعده ضلال؛ فمن منكراتهم وشركهم شَدُّ الرِّحال إلى المقبورين وسؤالهم، والذبح لهم، والتمسح بقبورهم، والاستعانة بهم من دون الله تعالى، وغير ذلك مما أحدَثوه من بِدَع في الدِّين بالصلوات المستحدَثة، والأذكار والأدعية المبتدَعة التي تكثُرُ فيها الشركيات، وهم يزعمون أنها توصلهم للنشوة والارتقاء والسمو في رحاب الله، وهو ظن فاسد؛ لأنه ليس في اتِّباع الشيطان والهوى أيُّ سمو أو رفعة للنفس، بل هو جهل وضلال، وإنهاك

---

١٧٨ - انظر حديث رقم/٢٩٣٧ في صحيح الجامع للألباني.

١٧٩ - انظر حديث رقم/ ٢٥٤٩ في صحيح الجامع للألباني، وهو في الصحيحة برقم/٢٧٣٥.

النفس بتنطع مذموم، وشعائر شيطانية لا دليل لها من كتاب أو سنة، ولهذا حذَّر النبي صلى الله عليه وسلم من هذا السبيل فقال:))هلك المتنطِّعون((قالها ثلاثًا.[١٨٠]

•قال النووي – رحمه الله –: أي المتعمِّقون الغالُون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم؛ [١٨١]اهـــ.

قلت :فكلُّ مَن يتشدد في عبادة أو يزيد عليها ما لم يشرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهو واهمٌ إن ظن أن نفسه سوف تتطهر وتسمو، حتى لو شعَر بذلك، فهذا الشعور لا يدوم، وبعده ندم وحسرات لو كانوا يعلمون.

•وقال ابن القيم: كان الصحابةُ أقل الأمَّة تكلفًا؛ اقتداءً بنبيهم صلى الله عليه وسلم؛ قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾]ص: ٨٦[.

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه :مَن كان منكم مستنًّا، فليستنَّ بمن قد مات؛ فإن الحيَّ لا تؤمَن عليه الفتنة، أولئك أصحابُ محمد، كانوا أفضلَ هذه الأمة؛ أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلُّفًا، اختارهم الله تعالى لصُحبة نبيِّه، ولإقامة دِينه، فاعرِفوا لهم فضلهم، واتَّبِعوهم على أثرهم وسيرتهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم [١٨٢]اهـــ.

قلت :وكفى بقوله تعالى مبينًا حالهم ومسعاهم، هم ومن على شاكلتهم :﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا *الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا *أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾]الكهف: ١٠٣ – ١٠٥[.

•قال السعديُّ مبينًا تفسيرها ما نصه: "أي: قل يا محمد، للناس – على وجه التحذير والإنذار –: هل أُخبركم بأخسرِ الناس أعمالاً على الإطلاق؟ ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾]الكهف:

---

١٨٠ - أخرجه مسلم برقم/٤٨٢٣ – باب هلك المتنطعون.

١٨١ - انظر: المنهاج في شرح صحيح مسلم؛ للنووي – (٩/٢٦).

١٨٢ - انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان؛ لابن القيم (١/١٥٩).

١٠٤]؛ أي: بطَل واضمحلَّ كلُّ ما عملوه من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صُنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلَمون أنها باطلة، وأنها محادَّة لله ورسله ومعاداة؟

فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم؛ فـــ ﴿ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥]؟

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ﴾ [الكهف: ١٠٥]؛ أي: جحَدوا الآيات القرآنية، والآيات العيانية، الدَّالة على وجوب الإيمان به، وملائكته، ورُسله، وكتبه، واليوم الآخِر.

﴿ فَحَبِطَتْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾؛ لأن الوزن فائدته مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم؛ لعدم شرطها، وهو الإيمان؛ كما قال تعالى :﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢]، لكن تُعدُّ أعمالُهم وتحصى، ويقرَّرون بها، ويُخزَون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يُعذَّبون عليها؛ ولهذا قال :﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ ﴾ [الكهف: ١٠٦]؛ أي: حُبُوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة ﴿ وَزْنًا ﴾؛ لحقارتهم وخِسَّتهم، بكفرهم بآيات الله، واتِّخاذهم آياته ورسلَه هُزواً يستهزئون بها، ويسخَرون منها، مع أن الواجبَ في آيات الله ورسله، الإيمانُ التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتعِسوا، وانتكسوا في العذاب [١٨٣]"اهـــ.

الأمر الثاني: تطهير القلب والجوارح من الآفات:

لا يخفى أن القلبَ هو أخطرُ جوارح الإنسان، كما هو معلوم للعامة والخاصة، ولا يستقيم إيمان العبد حتى يستقيم قلبُه، والقرآن الكريم يخاطب القلوبَ في كثيرٍ من آياته؛ كقوله تعالى :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

والسنَّة بيَّنت خطورة هذه الجارحة، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:))الحلال بيِّن، والحرام بيِّن، وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمها كثيرٌ من الناس؛ فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعِرضه ودِينه، ومَن وقع في

---

١٨٣ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/٤٧٨).

الشبهات وقع في الحرام، كراعٍ يرعى حول الحمى يوشكُ أن يواقعَه، ألا وإن لكل ملك حمًى، ألا وإن حمى الله تعالى في أرضه محارمُه، ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلَحت صلَح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب)).[١٨٤]

قلت :ومن الأهمية التنبيه هنا إلى أن القلب لو زاغ وتكبَّر وطغى عن أمر الله، لن يستقيم على الطريق، وسوف يضل السبيل، ويطبَعُ الله عليه، فلا يهتدي لطريق السمو والارتقاء بالنفس إلا إذا تاب وأناب إلى الله تعالى، وهو القائل :﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾]النساء: ١٥٥[.

وقال ابن القيم ما مختصره:

"كمالُ صلاح النفس غِناها بالاستقامة من جميع الوجوه، وبلوغُها إلى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب، وصلاح النفس متقدِّم على إصلاحها، هكذا قيل، وفيه ما فيه؛ لأن صلاحَ كل واحد منهما مقارِن لصلاح الآخر، ولكن لما كان القلبُ هو الملِكَ، وكان صلاحُه صلاحَ جميع رعيَّته – كان أَوْلَى بالتقديم [١٨٥]"اهـــ.

ولا يغيب عن فطنة القارئ الكريم أن الإنسان تختلف طبيعةُ نفسه باختلاف الظروف والأحوال؛ فقد يجد نفسه في بعض الأحوال مقبلاً على الله، يخشع في صلاته، يبكي في دعائه وقنوته، يُكثِر من قراءة القرآن وتدبُّره، يحافظ على أذكار الصباح والمساء، يحبُّ كل خير.

وفي أحوال أخرى يجد نفسه ساهيًا لاهيًا، لا يخشع في صلاته، وربما يتكاسل عن أدائها في أوقاتها، وربما يصليها منفردًا تاركًا فضل الجماعة دون عذر، هاجرًا لكتاب الله لا يقرأ فيه إلا بين الفينة والفينة، قليل الدعاء والذِّكر، وغير ذلك.

ومن ثَمَّ ينبغي تطهيرُ القلب من آفاته؛ من حقد، وحسد، وحرص على دنيا، وما أشبه ذلك؛ فهي تُعيق سموَّ النفس، وتطبع على القلب غشاوةً لا تزولُ إلا بتطهيره من آفاته المهلكة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى بالإخلاص والصبر على المكارهِ واليقين بالله تعالى، سوف نرى العجب العُجاب، وسنعرف

---

١٨٤ - أخرجه مسلم برقم/٣٩٩٦ – باب أخذ الحلال وترك الشبهات، والبخاري برقم/٥٠ – باب فضل من استبرأ لدينه.

١٨٥ - انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين؛ لابن القيم (١/٣٤)

أنفسنا جيدًا، وندرك سُبل تحقيق غايتنا وأمانينا، ونصل بأنفسنا إلى أعلى درجات غنى النفس، والسمو بها، التي بها تحيا القلوب وتستقيم على أمر الله تعالى.

•هذا وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((ليس الغِنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغِنَى غِنَى النفس)).[١٨٦]

وهذا حقٌّ لا مِرية فيه، فمتى استغنت النفسُ، استغنى القلب عن اللجوء لغير الله تعالى، واستقام على الطَّريق القويم.

المحور الثاني
بيان أن رسالة الإسلام وتعاليمه تسمو بالعلاقات بين البشر

لا يخفى أن العلاقات الإنسانية والاجتماعية في دنيا الناس قد تتخذ صوراً مثل التعاون والتسامح والمحبة والتكافل والتمسك بالفضائل... وغير ذلك من الأعمال الصالحة، ومكارم الأخلاق، ولا يختلف مفهومها بين البشر منذ فجر البشرية، بل هي صورٌ من صور الرُّقي والتحضُّر في كلِّ عصر ومصرٍ.

والاختلاف الوحيد الذي يجب التنبيه إليه أن الله تعالى يجزي من شاء كيفما شاء لعمله الصالح إن دخَل في هذا الدِّين بعد أن بعث الله رسوله الخاتم صلى الله عليه وسلم وشهِد شهادة الحق؛ لأنها رسالةُ الله للعالَمين، وليس لغير المنتمي لهذا الدين جزاءٌ من الله تعالى عن عمله الصالح إلا الخسران المبين، اللهم إلا من سبق ومات قبل بعثته صلى الله عليه وسلم ممن لم يدرك دعوته ومات على الحنيفية السَّمحة.

•ودليل ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى :﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

قال أبو جعفر الطبري – رحمه الله – في تفسيرها:

١٨٦ - أخرجه البخاري برقم/٥٩٦٥ – باب الغنى غنى النفس، ومسلم برقم/١٧٤١ – باب ليس الغنى عن كثرة العرض.

وما كنا مهلكي قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل، وإقامة الحجَّة عليهم بالآيات التي تقطع عذرهم[١٨٧]؛ اهـــ.

قلت: والسمو بين الإنسان وأخيه الإنسان في رسالة وتعاليم الإسلام أمرٌ لم تصل إليه أكثر الأمم تحضراً في عالمنا المعاصر، ووصايا الرسول صلى الله عليه وسلم وطريقته وسنته في التطبيق العملَي لكتاب الله تعالى: تعاليمُ من السماء، من إله حق واحد أحد لنبيٍّ حقٍّ ورسول خاتم جمع خِصالَ الأوَّلين والآخرين، وارتقى بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان رُوحيًّا وجسديًّا، ما يشهد به القاصي والداني، ولو تدبرها ووعاها البشر في العالم المتحضر كله على اختلاف عقيدهم وثقافتهم ولغاهم بكل حيادية وإنصاف، ما وسِعهم إلا أن يتبعوها وينهلوا من سموها وبهائها، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وكيف لا؟ وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:))ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله – تبارَك وتعالى – بيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ، إلا أدخله الله الإسلام، بعزِّ عزيز أو بذلِّ ذليل، عزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلام، وذلاًّ يذلُّ اللهُ به الكفر)).[١٨٨]

ولبيان هذا المحور نوجزه في أمرين:

الأول :بيان حقيقة ودلائل السمو الرُّوحي بين المسلم وأخيه المسلم.

الثاني :بيان حقيقة ودلائل السمو الرُّوحي بين المسلم وغير المسلم.

وعلى السطور التالية الأدلة الشرعية من القرآن والسنَّة في بيان هذين الأمرين، وما توفيقي إلا بالله العليم الخبير.

الأمر الأول: وصايا القرآن والسنة للسمو في علاقة المسلم مع أخيه المسلم:

ولبيان هذا الأمر نقول :إن في القرآن والسنَّة وصايا جامعة كافية لوضع قواعد وبنود شرعية في تنظيم العلاقات بين المسلم وأخيه المسلم، لنشر مكارم الأخلاق للترقي والسمو فيما بينهما، وعقاب وإلزام الخارجين عنها إن استحقوا العقاب لجهرهم بالمعاصي، وإضرارهم بقِيَم المجتمع لسبب من الأسباب التي يبيح الشرع العقاب فيها، إما لنشر الفتن والإلحاد بين الناس، أو الدعوة للفاحشة، أو الإضرار بالآخرين بالغش والسرقة وشَهادة الزور، ونحو ذلك، أو بأي وسيلة من الوسائل الموجودة في دنيا

١٨٧ - جامع البيان في تأويل القرآن؛ لأبي جعفر الطبري، تحقيق محمود محمد شاكر – الناشر: مؤسسة الرسالة (١٧ / ٤٠٢ /٢٨٣).

١٨٨ - سبق تخريجه.

الناس؛ فرسالة الإسلام تجمع بين الترهيب والترغيب، تارة بالنصح والإرشاد والتوجيه، وتارة أخرى بالزجر والوعيد والعقاب.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم:

١-الدعوة إلى الله بالكلمة الطيبة والقول الحسن:

وهذه هي أسمى الأعمال وأوجبُها، بل هي مهمة المصطفَيْنَ من الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والدعوة إلى الله تعالى وتوحيده وإخلاص العبودية له - جل في علاه -: من أجلِّ الحقوق التي ينبغي أن يقوم بها المسلم تجاه أخيه المسلم.

قال تعالى :﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣].

قال السعدي: هذا استفهام بمعنى النفي المتقرر؛ أي: لا أحد أحسن قولاً؛ أي: كلامًا وطريقة وحالة، ﴿ مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ بتعليم الجاهلين، ووَعْظ الغافلين والمُعرِضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله، بجميع أنواعها، والحث عليها، وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، ثم قال :﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾؛ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تُسخِطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق، ولا الإساءة إليهم.. ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى من أساء إليك، فقال :﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾؛ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخَلق، خصوصًا من له حق كبير عليك، كالأقارب، والأصحاب، ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابِلْه بالإحسان إليه، فإن قطعك فَصِلْه، وإن ظلمك فاعفُ عنه[١٨٩]؛ اهـ.

٢-حرمة السخرية والتنابز بالألقاب ونشر العداوة:

نهى القرآنُ عن السخرية بالآخرين والتنابز بالألقاب؛ لأنه يؤدي إلى نشر الحقد والكراهية بين أفراد المجتمع، فقال تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ

---

١٨٩ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/ ٧٤٩)

مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾]الحجرات: ١١[.

قال ابن كثير ما مختصره: ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:))الكِبْر بطَرُ الحقِّ، وغَمْص الناس))، ويروى:))وغمط الناس))، والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام؛ فإنه قد يكون المحتقَرُ أعظمَ قدراً عند الله، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له؛ ولهذا قال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾]الحجرات: ١١[، فنص على نهي الرِّجال، وعطف بنهي النساء.

وقوله :﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾؛ أي: لا تلمزوا الناس، والهمَّاز اللَّمَّاز من الرجال مذموم ملعون؛ كما قال تعالى :﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾]الهمزة: ١[؛ فالهمز بالفعل، واللمز بالقول، كما قال :﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾]القلم: ١١[؛ أي: يحتقر الناس ويهمزهم طاعناً عليهم، ويمشي بينهم بالنميمة، وهي: اللَّمْزُ بالمقال؛ ولهذا قال ها هنا :﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾]الحجرات: ١١[، كما قال :﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾]النساء: ٢٩[؛ أي: لا يقتُلْ بعضُكم بعضاً[١٩٠]؛ اهــ.

٣–التحذير من الظلم وسوء الظن بالمسلم دون بيِّنة:

نهى القرآنُ عن سوء الظن من غير قرينة؛ لأنه يؤدي إلى الظُّلم وضياع الحقوق، وما يتبع ذلك من الأقوال، والأفعال المحرَّمة، وربما إلى الاقتتال لمجرد ظنون تُهلك الحرث والنسل، وتمحو الأمن والأمان في القلوب تجاه الآخرين؛ ولهذا قال تعالى مخاطباً أهل الإيمان :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾]الحجرات: ١٢[.

والآيات في ذلك كثيرة يضيق بها المقام هنا، ونكتفي بما ذكرنا، والله المستعان.

ومن السنَّة النبوية ما لا يحصى من الأحاديث والوصايا للتواصل والتراحم والسمو بالنفس في تعامل المسلم مع أخيه المسلم، تارة بالترغيب، وتارة أخرى بالترهيب، منها على سبيل المثال:

---

١٩٠ - تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع (٧/ ٣٧٦).

١–حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:))لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أَوَلا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحابَبْتُم؟ أفشوا السلامَ بينكم)).[١٩١]

٢–وعنه رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:))خمس تجبُ للمسلم على أخيه: ردُّ السلام، وتشميت العاطس، وإجابة الدعوة، وعيادة المريض، واتباع الجنائز)).[١٩٢]

٣–وعنه رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :))كلُّ المسلم على المسلم حرام؛ مالُه وعِرْضُه ودمُه، حسب امرئٍ من الشر أن يحقِرَ أخاه المسلم)).[١٩٣]

٤–ومنها حديثُ ابن عمرَ رضي الله عنهما عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال:))المسلم أخو المسلم، لا يظلِمُه ولا يُسلمُه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجتِه، ومن فرَّج عن مسلم كربةً فرَّج الله عنه بها كربةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومن ستَر مسلمًا ستره اللهُ يوم القيامة)).[١٩٤]

•ومنها حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال ((:سِبابُ المسلم فسوقٌ، وقتاله كفر، وحرمة ماله كحُرمة دمِه)).[١٩٥]

•ومنها حديث أَنَسٍ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسِه)).[١٩٦]

---

١٩١ - أخرجه مسلم برقم/ ٨١ – باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون.

١٩٢ - أخرجه البخاري برقم/ ١١٦٤ – باب الأمر باتباع الجنائز، ومسلم، باب الأمر باتباع الجنائز – باب من حق المسلم للمسلم رد السلام.

١٩٣ - انظر صحيح الترمذي برقم/ ٢٠١٠، وأبو داود برقم/ ٤٨٨٢ للألباني.

١٩٤ - أخرجه البخاري برقم/ ٢٢٦٢ – باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه.

١٩٥ - انظر حديث رقم: ٣٥٩٦ في صحيح الجامع.

١٩٦ - أخرجه البخاري برقم/ ١٢ – باب من الإيمان أن يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه.

وهذه الحقوقُ التي بيَّنها النبي صلى الله عليه وسلم تهدف إلى بناء مجتمع قائم على الفضيلة، وإنكار الذات، حريصٍ على نشر المحبة والتواضع والسماحة، ونحو ذلك من مكارم الأخلاق؛ للسمو بالمسلم في علاقته مع أخيه المسلم بأسلوب عملي، متخذًا منه صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة؛ لأن الله تعالى جعله بفضله وكرمه ورعايته منذ مولده إلى أن مات فيه الكمال الإنساني في السمو والرقي، ومن ثم ليست سنته القولية والفعلية مجرد أقوال تقال، ونصائح مجردة، أو أعمال لا طاقة للمسلم بالقيام بها، بحجة أنه نبي ورسول، بل كل مسلم قادر على أن يتأسى به في أقواله وأعماله، إلا ما جاء الدليل على أنها من خصائصه التي لا تحل لغيره، وهي معروفة وليست في حاجة لبيان.

الأمر الثاني: وصايا القرآن والسنَّة للسمو في علاقة المسلم بغير المسلم:

يتبع المسلم في علاقته بغير المسلم تعاليم ووصايا من رب الأرض والسماء، الإله الواحد الحق الذي لم يلد و لم يولد، و لم يكن له شريك في الملك، وفيها لكل البشرية في أرجاء المعمورة بيان شافٍ لطريق الحق والرشاد في كيفية التعامل الراقي بين الإنسان مع أخيه الإنسان دون تمييز بسبب الجنس أو اللون أو العقيدة.

وما على المسلم إلا أن يمضي قدمًا متبعًا لا مبتدعًا بخطوات واثقة رصينة في العمل بهذه الوصايا من نصوص الوحيين في علاقته بغير المسلم، رغم أشواك وعقبات الطريق وعوائق الدعوة لله تعالى من فئة من شرار الخلق وأولياء الشيطان من أحفاد أبي جهل، وهم في كل عصر ومصرٍ، وذلك بلا تردد أو خوف، وبتوكُّلٍ على من بيده الأسباب والمسببات - جل في علاه - ويقين بنصره تعالى وتمكينه للمسلمين في القريب العاجل، إن لم يكن اليوم فغدًا، وإن غدًا لقريب، وذلك بلا كلل أو ملل؛ لأنه طريق واضح جلي، حتى يقضي اللهُ أمرًا كان مفعولاً.

ومن أمثلة الوصايا القرآنية في التعامل الراقي مع غير المسلمين:

•قوله تعالى :﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة: ٨].

قال السعدي: أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصِلوهم، فإن صلتَهم في هذه الحالة لا محذورَ فيها ولا مفسدة، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين

إذا كان ولدهما مسلماً :﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾]لقمان: ١٥[؛ [١٩٧]اهـ.

•قلت: وفي السنَّة الصحيحة الكثير من الوصايا النبوية في كيفية تعامل المسلم مع أهل الذمة من اليهود والنصارى.

ولقد شدَّد النبي صلى الله عليه وسلم الوعيد على من يهتك حرمة دمائهم، فقال صلى الله عليه وسلم:))مَن قتل مُعاهَدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنة، وإن ريحَها توجد من مسيرةِ أربعين عامًا)).[١٩٨]

وقد ذكرنا بعضًا من هذه الوصايا القرآنية والنبوية في المبحث الثالث من هذه الدراسة "الإسلام والمجتمع المثالي" في معرضِ حديثنا عن حقوق أهل الكتاب في ديار الإسلامِ من منظور الشريعة، ما يغنينا عن إعادته هنا، منعًا للتَّكرار، فليرجع إليه.

ومن ثم لنا الحق أن نفخر بإسلامنا وقرآننا ونبينا المبعوث للناس كافة، ونعظم حرصه الشديد صلى الله عليه وسلم في كثير من أحاديثه ووصاياه على حقوق أهل الكتاب ومن جرى مجراهم، وسمو التعامل معهم من منظور وسطية الإسلام وحرية العقيدة، كما بينا حقيقتها وشروطها سلفًا.

وكلُّها وصايا نبويَّة لا تصدُرُ إلا من قلب اصطفاه الله ليكون للعالَمين بشيرًا ونذيرًا، ويكون لمن عمل بقوله نبراسًا ومنهاجًا؛ ليطهِّر نفسه من كل صفة ذميمة، وكل حقد وغل يصيب قلوب البشر على اختلافِ عقيدتهم ولُغاتهم وعادتهم.

المحور الثالث

بيان أن تعاليم الإسلام تسمو بالإنسان مع نفسه التي بين جنبيه

---

١٩٧ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان؛ لعبدالرحمن بن ناصر السعدي – الناشر: مؤسسة الرسالة (١/ ٨٥٦)

١٩٨ ـ أخرجه البخاري من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما برقم/ ٢٩٣٠ – باب إثم من قتل معاهَدًا بغير جُرم.

من المعلوم أن النفس البشرية في اتزانها وعقلانيتها وإيمانها تارة، وفي هياجها وكفرها وإلحادها تارة أخرى، لا تخرج عن أمرين، والإنسان مخيَّر بينهما، ومسؤول عنها وعن اختيارِها؛ لأنها نفسه التي بين جنبيه؛ فلو ترك العنان لها وحاد بها عن الطريق، فقد أهلكها وخسر وخاب، وإن روَّضها وزجرها، فقد أفلح وفاز، وفي هذا المعنى قال تعالى :﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

وهذان الأمران هما:

الأول: أنه في حاجة إلى طاقة ليجدد حيويتها ونشاطها دومًا:

ونقصد بالطاقة القدرة على السمو بالنفس بما يرضي الله تعالى من الطاعات والعبادات الشرعية، التي تهيج خمول النفس وتردُّدها وسلبيتها، وترتقي بها، وتعلو همتها، وتشع وتؤثر في جوارح صاحبها بطاقة خلاَّقة إيجابية ومثمرة، فمن المعلوم أن الإيمانَ يَزيدُ وينقص؛ يزيد بالطاعات، وينقص بالمعاصي والآفات.

فكما أن حلاوة المعصية تهيج النفس إلى حين، وتجدد حيوتها ما ظلت لذتها، ثم يعقبها ندم وخزي وتأنيب ضمير، فكذلك الطاعة تزيد من تهيج النفس للسمو والرقي وعلو الهمة ولذة لا تدانيها لذة يقذفها الله في قلب المؤمن إلى أن تفتُرَ عزيمته، وتقل طاقته، ولكن يعقبها رضًا وسكينة وراحة، ومحاولات مستمرة للعلوِّ والسمو والقرب والأنس بالله تعالى.

وما نريد قوله مما ذكرناه آنفًا أن الطاعات التي أمَرنا الله ورسولُه صلى الله عليه وسلم بالعمل بها والإكثار منها، والمعاصي التي أمرنا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بتجنُّبها والبُعد عنها حتى تصبح بفضل الله ونية صاحبها طاعةً وعبادة يثاب عليها العبد؛ لأنه تركها لله تعالى - هي المصدر الرئيسي للطاقة المتجددة دومًا، سلبًا وإيجابًا، بحسب استعداد النفس، وقدرة صاحبها، وعلو همته على ترويضها وتهذيبها والسمو بها.

والإسلام يدعو أتباعه إلى الطاعة والعبادة، ويبيِّنُ لهم أنها الغاية من الخَلق والوجود، ويعلن لهم هذه الحقيقة دومًا في كثيرٍ من آياتِ القُرآن والسنَّة النبوية.

قال تعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ *مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ *إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما مختصره:

فالدِّين كلُّه داخل في العبادة، وقد ثبت في الصحيح أن جبريلَ لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال:))الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً))، قال: فما الإيمان؟ قال:))أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبَعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيرِه وشره))، قال: فما الإحسان؟ قال:))أن تعبُدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك))، ثم قال في آخر الحديث:))هذا جبريل جاءكم يعلِّمكم دينكم))[١٩٩]، فجعل هذا كله من الدين[٢٠٠]؛ اهـــ.

قلت :ولا يخفى على أولي الألباب أن الطاعات ثقيلة على النفس، والمعصية خفيفة، وسبب ذلك كما لا يخفى نقصان المحبة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهما ينبوع كل طاقة خلاَّقة في قلوب المؤمنين، والدليل على ذلك من القرآن والسنَّة ما يلي:

•قال تعالى :﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾]آل عمران: ٣١[.

قال ابن كثير في تفسيرها ما مختصره: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبةَ الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرعَ المحمديَّ والدين النبويَّ في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيحِ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:))مَن عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرُنا، فهو ردٌّ))؛ ولهذا قال :﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾؛ أي: يحصُلْ لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظمُ من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ، وقال الحسنُ البصري وغيره من السلف:

---

١٩٩ - أخرجه مسلم برقم/ ١٠ – باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، والبخاري نحوه برقم/٤٨ – باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم.

٢٠٠ - انظر كتاب العبودية؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية (٤٨/١) – باب مراتب الحب – نشر المكتب الإسلامي – بيروت.

زعم قوم أنهم يحبُّون اللهَ، فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال :﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾[٢٠١]؛ اهـــ.

قلت :فهذا دليلٌ بيِّن أن محبة الله ورسوله سبب في اتباع الحق، وفي اتباع الحقِّ سموٌّ النفس وفلاحها.

أما الدليل من السنَّة، فحديث عبدالله بن هشام رضي الله عنه، قال: كنا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو آخذٌ بيدِ عمرَ بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسولَ الله، لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((لا والذي نفسي بيده، حتى أكونَ أحَبَّ إليك من نفسِك))، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:))الآن يا عمر)).[٢٠٢]

قال ابن حجرٍ العسقلاني – رحمه الله – في شرح الحديث ما مختصره: أي: لا يكفي ذلك لبلوغ الرُّتبة العليا حتى يضاف إليه ما ذكر، وعن بعض الزُّهاد: تقديرُ الكلام: لا تصدُقُ في حبي حتى تُؤْثِرَ رضاي على هواك، وإن كان فيه الهلاك، قوله: "فقال له عمر: فإنه الآن يا رسول الله لأنت أحبُّ إلي من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((الآن يا عمر)):"
قال الخطَّابيُّ: حب الإنسان نفسَه طَبْعٌ، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار؛ إذ لا سبيلَ إلى قلب الطِّباع وتغييرها عما جُبِلَت عليه، قلت: فعلى هذا فجواب عمر أولاً كان بحسَب الطبع، ثم تأمَّل فعرَف بالاستدلال أن النبي صلى الله عليه وسلم أحبُّ إليه من نفسه؛ لكونه السببَ في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار؛ ولذلك حصل الجواب بقوله:))الآن يا عمر))؛ أي: الآن عرفتَ فنطقتَ بما يجب؛ [٢٠٣]اهـــ.

قلت :والحاصل مما سبق أن التطبيق العملي، والارتقاء بالنفس للوصول إلى أعلى درجات السمو الرُّوحي لها: علامتُه ألا يكون هناك شيء أحب إليها من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولن يتيسَّر لها ذلك إلا إذا أخلص صاحبُها نيتَه له جل وعلا، وبالصبر على المكاره واليقين والتوكل عليه – سبحانه وتعالى – سوف يرى العَجَب العُجاب.

---

٢٠١ - انظر: تفسير القرآن العظيم؛ لابن كثير – الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع)٢/ ٣٢.(

٢٠٢ - أخرجه البخاري برقم/ ٦١٤٢ – باب كيف كانت يمين النبيِّ صلى الله عليه وسلم.

٢٠٣ - انظر: شرح ابن حجر للحديث في كتابه "فتح الباري، شرح صحيح البخاري."

قال ابن القيِّم – رحمه الله – ما مختصره:

وإذا وصلت النفس إلى هذه الحال، استغنت بها عن التطاول إلى الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة، والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة، فإن فقرها إلى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب، وأيضًا فتقاعدها عن المطلوب بينهما موجِبٌ لفقرِها إلى الشهوات، فكلٌّ منهما موجِبٌ للآخر.

وترك الأوامر أقوى لها من افتقارها إلى الشهوات، فإنه بحسب قيام العبد بالأمر تدفع عنه جيوش الشهوة؛ كما قال تعالى :﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾]العنكبوت: ٤٥].

ثم قال – رحمه الله –: وإذا صارت النفس حرةً طيبة مطمئنة غنية بما أغناها به مالكها وفاطرها من النُّور الذي وقع في القلب، ففاض منه إليها، استقامت بذلك الغنى على الأمر الموهوب، وسلمت به عن الأمر المسخوط، وبرئَتْ من المراءاة، ومدار ذلك كله على الاستقامة باطنًا وظاهراً؛ ولهذا كان الدِّينُ كله في قوله تعالى :﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾]هود: ١١٢].

وقال سبحانه :﴿ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾]الأحقاف: ١٣][٢٠٤]؛ اهـ.

الأمر الثاني: أنه في حاجة لمعرفة طبيعتها، وطرق ترويضها؛ لتستقيم على طريق السمو والرقي، ولا تحيد عنه:

ولا يغيب عن أولي الألباب أن النفس البشرية عمومًا مطبوعةٌ على الفطرة، ومع اختلاطها بالناس – ومنهم الصالح والطالح – وتلذُّذها بشهوات الدنيا وغير ذلك: تتغيرُ طبيعتها حسب درجة تأثرها، ومدى الخَلَل الذي أصابها طوال فترة تمرُّدها وبُعدها عن الله تعالى ومبارزته بالمعاصي، ومن أجل ترويضها لتستقيم وتترقى؛ ينبغي معرفةُ سبل علاج الخلل الذي أصابها، وتلك هي الخطوة الأولى، وكل إنسان أدرى بحقيقة نفسه التي بين جنبيه بناءً على أقواله وأفعاله دِينًا ودنيا.

---

[٢٠٤] - انظر كتابه طريق الهجرتين وباب السعادتين(ص/٤١) – فصل: في تفسير غنى النفس.

ثم يبدأ محاسبته لها عن الخطأ، وإصلاح الخلل الذي أصابها، وتهذيبها وتقويمها للأفضل، وتلك هي الخطوة الثانية، مع العلم أن إقرارَ الإنسان بالذنب والتقصير في حق الله تعالى ثم حق نفسه في إهمال اتخاذ العُدَّة، وسبل الفلاح والنجاة لنفسه التي بين جنبيه – هو البداية الصحيحة لقدرته على ترويضها، وكبح جماح نفسه، وتمردها وهياجها.[٢٠٥]

ثم يبدأ الخطوة الثالثة في علاج الخلل، إما بالتدرج في العلاج، أو بالعزيمة وقوة الإرادة من مرة واحدة حسب استعداد صاحبها وقوة إيمانه ويقينه وتوكله على خالقه – جل في علاه – ملتمساً هدي القرآن والسنَّة، ثم يبدأ الخطوة الرابعة، ثم الخامسة وهكذا، حسبما يرى صاحبها؛ حتى تستقيم على أمر الله تعالى في النهاية.

ونذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر، ومنعًا للإطالة اثنتين من القواعد الأساسية من القرآن والسنَّة الصحيحة، التي لا سبيل لإصلاح النفس إلا بالعمل بهما، وينبغي للمرء أن يحث نفسه التي بين جنبيه ويروِّضها على ذلك؛ ليصقل قدرته على كبح جماحها، وانطلاقها لإرضاء ملذاتها وشهواتها بلا حساب أو عقاب، حتى تعلو همته، ويمضي بها في طريق الاستقامة، وهو سبيله الوحيد للنجاة والفلاح في الدنيا والآخرة، وما التوفيق إلا من عند الله العليم الخبير.

القاعدة الأولى: الحذر من تزكيتها؛ حتى لا تغتر برحمة الله تعالى:

من الخطورة أن يغتر الإنسان بتزكية الناس له لأمر من الأمور الدينية أو الدنيوية، فضلاً عن تزكيته لنفسه أمام الناس وما فيه من رياء وتصنع ممقوت قد يؤدي إلى إحباط العمل، ويكفي علمه أن الله تعالى يعلم سريرته وعلانيته، ولا يغره بالله الغَرورُ، ولقد نهى الله تعالى عن ذلك فقال :﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ [النجم: ٣٢].

وحتى يتضح المقصود بتزكية النفس؛ نذكر قول العلامة ابن العثيمين – رحمه الله – في تفسيرها، قال ما مختصره: أي: لا تزكوها، وتقول: عملت كذا وكذا، وصلَّيت، وزكَّيت، وصُمت، وجاهدت، وحججت، لا تقل هكذا، تُدل بعملك على ربك، هذا لا يجوز.

---

٢٠٥ - للمزيد من البيان انظر كتابي: "من أنت وماذا تريد؟"، وهو منشور في مواقع كثيرة؛ كصيد الفوائد والمشكاة، وغيرهما..

فإن قال قائل: أليس الله يقول :﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾]الشمس: ٩]؟

فالجواب: بلى، لكن معنى ﴿ مَنْ زَكَّاهَا ﴾؛ أي: من عمل عملاً تزكو به نفسه، وليس المعنى ﴿ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ :مَن أثنى عليها ومدحها بأنها عملت وعملت، بل المراد عمل عملاً تزكو به نفسه، فلا معارضة بين الآيتين؛ ولهذا نقول: من زكى نفسه بذكر ما عمل من الصالحات، فإنه لم يُزَكِّ نفسه، فمن زكى نفسه بمدحها فإنه لم يزكِّ نفسه، وفرق بينهما؛ فالتزكية التي يحمد عليها الإنسان أن يعمل الإنسان عملاً صالحًا تزكو به نفسه، والتزكية التي يُذَمُّ عليها أن يُدلَّ بعمله على ربه ويمدح، وكأنه يمنُّ على الله، يقول: صليت، وتصدَّقتُ، وصمت، وحججت، وجاهدت، وبررتُ والدي وما أشبه ذلك، فلا يجوز للإنسان أن يزكيَ نفسَه.

ثم قال – رحمه الله :– ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾]النجم: ٣٢] يعني: إن كنتَ متقيًا لله، فالله أعلمُ بك، ولا حاجة أن تقول لله: إني فعلت وفعلت[٢٠٦]؛ اهـــ.

وفي السنَّة الترهيب من ذلك:

ففي حديث يزيد بن أبي حبيب عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سميتُ ابنتي بَرَّة، فقالت لي زينبُ بنت أبي سلمة: إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم، وسُميت بَرَّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تزكُّوا أنفسكم، الله أعلمُ بأهل البرِّ منكم))، فقالوا: بمَ نسميها؟ قال:))سموها زينب)).[٢٠٧]

قلت :وإذا كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم ينهى عن التزكية في مجرد اسم قد يؤدي إلى ضرر، فلا ريب أن تزكيةَ الإنسان لنفسه أو لغيره لطاعة أو لمال أو علم أو حسب ونسب.. وما أشبه ذلك فيها ضرر أكيد وهلكة للنفس، وسببٌ لتمردها وضعفها من باب أولى، لماذا؟

لأنه قد يؤدي إلى الغرور والعُجْب والزَّهو بالنفس، وقد يوسوس له الشيطان بأنه لا حاجة لطاعة أخرى؛ فقد صار من الأولياء والنُّجَباء، وقد يقذف في قلبه الكِبْر، فيظن أنه أعلمُ أهل الأرض، ولا

٢٠٦ - تفسير العلامة محمد العثيمين – مصدر الكتاب: موقع العلامة العثيمين (١١/ ٢٥).

٢٠٧ - أخرجه مسلم برقم / ٣٩٩٢ – باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسَن.

حاجة له للتعلُّم؛ فقد صار من الفقهاء، وهكذا، حتى تملكه التزكية، ويهمل ما تحتاجه نفسه من طاقة ليجدد ضعفها وفتورها.

القاعدة الثانية: مجاهدتها لرد كيد الشيطان وتلبيسه لها:

ينبغي مجاهدة الشيطان وتلبيسه للنفس بكافة الطرق الشرعية؛ لأن عداوته لا تزول أبدًا، بل هو – لعنه الله – يبرِّر طاعة ضعاف الإيمان له في الدنيا ومعصيتهم لله تعالى إلى نفوسهم؛ كما قال تعالى:
﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

•وفي السنَّة بيَّن النبي خطورة تلبيسه للإنسان بقوله:))إنَّ الشَّيطانَ يجري من الإنسان مجرى الدَّمِ، وإني خشِيتُ أن يلقيَ في أنفسِكما شيئًا)).[٢٠٨]

قال ابن الجوزي في كتابه النفيس" تلبيس إبليس) "١/٥٠" ما مختصره: وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكُّنه منهم ويقلُّ على مقدار يقظتهم وغفلتهم، وجهلهم وعلمهم، واعلم أن القلب كالحصن، وعلى ذلك الحصن سور، وللسُّور أبواب، وفيه ثُلَم[٢٠٩]، وساكنه العقل، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن، وإلى جانبه ربض فيه الهوى، والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانعٍ، والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض، والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثُّلَم، فينبغي للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذي قد وكل بحفظه، وجميع الثلم، وألا يفترَ عن الحراسة لحظة، فإن العدوَّ ما يفتُرُ، قال رجل للحسَنِ البصري: أينامُ إبليس؟ قال: لو نام لوجدنا راحة.

ثم قال –رحمه الله –: وهذا الحصن مستنيرٌ بالذِّكر، مشرق بالإيمان، وفيه مرآة صقيلة، يتراءى فيها صور كل ما يمر به، فأول ما يفعل الشيطان في الربض إكثار الدخان، فتسودُّ حيطانُ الحصن، وتصدأ المرآة، وكمال الفكر يرد الدخان، وصَقْلُ الذِّكر يجلو المرآة، وللعدو حملات، فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكرُّ عليه الحارس فيخرج، وربما دخل فعاث، وربما أقام لغفلة الحارس، وربما ركدت الريح الطاردة

---

٢٠٨ - أخرجه البخاري من حديث علي بن الحسين برقم/ ١٨٩٧ – باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه.

٢٠٩ - الثُّلَم: جمع ثُلْمة، كغُرْفة وغُرَف، وهي في الأصل: موضع الكسر من القدح

للدخان فتسودُّ حيطان الحصن، وتصدأ المرآة، فيمر الشيطان ولا يدري به، وربما جرح الحارس لغفلته وأُسِر واستُخدم وأقيم يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته، وربما صار كالفقيه في الشر؛ اهـــ.

قلت :ولا يخفى أن في القرآن والسنَّة الكثير من القواعد والمبادئ التي تطلق عِنان النفس في رحاب السمو والترقي، وما يشيعه ذلك في النفس من سكينة وراحة، وتوكل ويقين، وبصيرة يميز بها صاحبها طريقَ الحق والرشاد من طريق الكفر والضلال، فيتبعه بثقة وإيمان، ولا يُلقِي بنفسه إلى التهلُكة، ولكن فيما ذكرناه الكفايةُ لبيان مقصودنا في هذا المبحث.

وبعد لقد طرحنا في هذه الدراسة الشرعية جوانب عديدة تبين عظمة الإسلام وأثبتنا أن تشريعاته وتعاليمه السمحة فيها البلسم الشافي للبشرية من كل داء وأنه مصدر سعادتها وتقدمها وفلاحها دينا ودنيا وكنت أريد أن أبين جوانب أخرى عن عظمة رسالة الإسلام ولكن ستطول بنا مادة هذه الدراسة وما في هذا من تشتيت للقارئ الكريم وكما ذكرنا في المقدمة نريدها مختصرة ووجيزة ولكن إن شاء الله تعالى عندما ييسر لنا الأمر ستزيد فيها ما يفتح الله به علينا وننشرها في جزء ثاني لأهميتها لبيان عظمة الإسلام من جوانب أخرى عديدة، ونبرهن بالأدلة الشرعية من نصوص الوحيين أنه حقاً رسالة الله للعالمين لذا نكتفي بما ذكرنا والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الكريم، وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه الفقير إلي عفو ربه

سيد مبارك